
ketab.me
تدابير القدر
Twitter: @brahemGH
14.11.2013
اللواء الركن
محمود شيت خطاب
دار قتيبة

اللواء الركن

محمود شيت خطّاب



قصص واقعيّة هادفة

دار قتيبة

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الرابعة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م


«نحن نقص عليك أحسن القصص»
قرآن كريم

الإهداء

إلى الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه

المؤلف



المقـدمة

لم أتوقع أبداً أن يحظى كتابي : (عدالة السماء) بهذا الانتشار الواسع على نطاق الأقطار العربية والبلاد الإسلاميّة ، فينشر بأكثر الصحف والمجلات ، ويذاع بأغلب الاذاعات ، ويترجم إلى مختلف اللغات ، وتصبح قصصه شائعة ، وأهدافه معروفة ، ويؤثّر في الناس تأثيراً بالغاً .

وما صنعت جديداً في هذا الكتاب ، ولم أجوّد في صياغة قصصه ، بل تركت قلمي على سجيته ، يسجّل حوادث القصص كما شهدتها ، بدون تكلّف ولا تزيّد ، فكان الكتاب مجموعة حكايات واقعية ، استهدفت من روايتها بعفويّة كاملة وصدق وأمانة ، أن أعيد القارىء العربي والمسلم إلى التفكير بالروح بعد أن انصرف تفكيره إلى المادة ، وإلى القلب بعد أن شغل بالجيب ، وأن أذكره بالعمل للآخرة كما يعمل للدنيا ، وللحياة الباقية كما يعمل للحياة الفانية ، وإذا كانت الحقيقة الأزلية للإنسان هي الموت ، فماذا أعدّ له من العمل الصالح ؟!

وحين صدر هذا الكتاب ، اجتاح العجب قرائي ، لأنني لم أصنع قبل صدوره كتاباً في القصص ولم أمارس هذا اللون من الأدب ، ولكن بعد انتشاره على نطاق واسع جداً ، اكتشف القراء هدفي من صنعه ، وعلموا أنه نوع من التاريخ الاسلامي الذي تفرّغت له ، والقصص الهادفة الصادقة نوع من التاريخ ، ولا قيمة للتاريخ إذا لم يكن هادفاً صادقاً ، يقدِّم العبرة لحاضر المسلم ومستقبله ، وينفع الروح كما ينفع الجسد ، ويقود للتي هي أقوم .

ومن حقِّ القراء عليَّ أن يظنوا أنني سخّرت قلمي لغير ما خلق له ، وأنْ يضنوا بقلمي على القصص ، لأنهم عهدوا الإنتاج القصّصي السائد يضرّ ولا ينفع ، ويهدم ولا يبني ، ويخرِّب ولا يعمِّر : منها القصص الجنسية التي تغري بالفساد ، ومنها القصص ذات الطابع الإجرامي التي تغري بالجريمة ، ومنها القصص التافهة التي تبدِّد الوقت عبثاً .

كما وجدوا أكثر كتاب القصص وناقليها من اللغات الأجنبية ، يهتمّون بما تدِّر عليهم من نفع ماديّ ، ولا يهتمّون بما تؤثر في القراء إنحلالاً وانحرافاً .

وقد جاء الحق حين صرَّح كبيرهم الذي علّمهم السحر ، بأنّ الصهاينة يفهمونه أكثر مما يفهمه العرب ، ويقيِّمون إنتاجه أكثر مما يقيِّمه قومه ، ففضح نفسه قبل أن يفضحه الله بعلاقته المريبة بالأعداء ، الذين جعلوه بأساليبهم الاعلامية مشهوراً ، لأنه حقّق

لهم أهم هدف من أهدافهم التخريبية ، وهو تلويث عقول قرائه ، وتحطيم ما تبقى في نفوسهم من خلق كريم ، لكي يسود الصهاينة والأعداء من جهة ، ولكي يستسلم الملوثون بغير مقاومة ، لأن الملوّث جنسيّاً أو الملوث جيبياً لا يقاوم عدواً ولا ينتصر أبداً .

هؤلاء الصهاينة وأعداء العرب والمسلمين كافة ، يسبغون النعوت الفضفاضة على الذين يضربون من الخلف العربية لغة والإسلام ديناً ، ويجعلون من عملائهم أسماء لامعة ، في غيبة الوعي الديني السليم ، وغياب النخوة العربية الأصيلة ، وفي غيابهما تجول الأيدي الخفية وتصول .

فلا عجب أن يتحدّث اولئك القصاصون عن الآلهة لا عن الإله الواحد ، وعن الكنائس لا عن المساجد ، وعن الصلبان لا عن المحاريب ، وعن قرع الأجراس لا عن تعالي الأذان ، وعن الزانيات لا عن الشريفات ، وعن الخيانة الزوجية لا عن الأمانة الزوجية ، وعن تبذل الفتى والفتاة لا عن استقامتهما ، وعن الحب الحرام لا عن الزواج ، وعن الربا لا عن الصدقات ، وعن الجريمة لا عن الفضيلة ، وعن الخمر والميسر والتدخين لا عن الصلاح ، وعن الكفر لا عن الايمان ، وعن الحرام لا عن الحلال .

وتطالعك المجلاّت التي تنشر القصص الطويلة تباعاً ، فتجد أكثرها تأمر بالفحشاء وتنهى عن الفضيلة ، ثم تسمع أن المخرجين

تسابقوا على شرائها ، فأخرجها الذي دفع ثمنها غالياً لتعرض رقاً في الخيالة ، فيقبل عليها المراهقون من الجنسين ، فتتساءل : لمصلحة من نخرِّب بيوتنا بأيدينا ؟! لمصلحة من نشيع الفاحشة بين شبابنا ؟ أهذا هو السبيل لإعداد الأمة للحرب من أجل استعادة المسجد الأقصى والأرض المقدسة ؟

وتقرأ أسلوب كتابة تلك القصص الدَّاعرة ، فتجد الأسلوب ركيكاً لا يلتزم بقواعد اللغة وبيانها ، كأن كتابها موكلون بتخريب اللغة وتخريب الضمائر ، وتخريب النفوس .

وتتساءل مرة أخرى : كيف أصبح أولئك الكتاب من قادة الفكر ، تطغى شهرتهم على قادة الفكر حقاً ؟! ومَن رفعهم إلى عداد المفكرين المشهورين ؟!

إنّ وجود أمثال هؤلاء الكتاب ، وبخاصة في مثل هذه الظروف الحرجة التي يجتازها العرب والمسلمون ، في المحيط العربي والإسلامي من مصلحة الصهاينة ومن وراءهم من المستعمرين ، ما في ذلك أدنى شك .

والذي رفع ذكرهم وأسبغ عليهم الشهرة والجاه والمال ، هو العدو الصهيوني ومَن وراءه من أعداء العرب والمسلمين .

ونَعِمَ هؤلاء النفر بالشهرة المزيّفة والجاه الكاذب والمال الحرام ، ولكنّ أمرهم انكشف بالتدريج فانهار بنيانهم الذي أسس على جرفٍ

هار ، وسينكشف أمر الآخرين اليوم أو غدا ، وكلّ خائن للغة قومه ودينهم مصيره الخزي والعار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة ، والله غالب على أمره .

ومن المذهل حقاً أن معظم تلك القصص منقولة نقلاً عن الأجانب ، وهي سرقات مفضوحة ، لا ينكرها الذين وضعوا أسماءهم عليها زوراً وبهتانا ، لأنهم لو أنكروها لسقطوا سقوطاً لا قيام لهم من بعده ، ففي كل قصة من تلك القصص ضمير مستتر يعود إلى قصّاص إنكليزي أو فرنسي أو روسي ، وهي لم تكتب بلغة عربية تضمن لها البقاء وتكفل لها الخلود ، وليس فيها إلاّ معناها ، فإذا خسرته خسرت كل شيء ، وماذا عسى أن يبقى من قصص معانيها مسروقة ، ومبانيها مرذولة ساقطة ؟!

ولست أعتدّ بمثل هذه القصص ، لأني لا أجد فيها روحاً كالتي أريد ، ولا لغة كالتي أرتضي ، وحسبي أن أنبّه الذين ينسجون على منوالها إلى مصيرهم المظلم ، وأنبّه المبهورين بها أنهم على ظلال .

ولا أقصد أن نقلع عن ترجمة القصص الأجنبية ، ولكنني أقصد ألاّ نترجم القصص الأجنبية التي تناقض حياتنا الاجتماعية جنسياً وأخلاقياً وسلوكياً ، فمن القصص الأجنبية قصص هادفة تعالج العيوب وتحارب الفساد ، ولا أدري لماذا نترجم القصص الأجنبية المنحرفة وننسج على منوالها ولا نترجم القصص الأجنبية السويّة وننسج على منوالها .

ولست وحدي أضيق ذرعاً بالقصص الأجنبية المنحرفة ، فالذين يريدون الخير من الأجانب ويحاولون وضع حد للفساد والافساد في محيطهم ، يضيقون أشد الضيق ذرعاً بقصص بلادهم المنحرفة ، وقد صنفوا الكتب وكتبوا البحوث والمقالات وأذاعوا آراءهم الصريحة القاسية أحياناً في محاربة القصص المنحرفة وغيرها من الانحرافات ، فلماذا نستورد الذي هو أدنى ونترك الذي هو خير ؟!

وفي اللغة العربية أدباً وتاريخاً تراث مجيد ، يمكن الاقتباس منه لوضع القصص الجديدة التي تناسب تقاليد ومُثُل العرب والمسلمين ، ومن حق هذا التراث العربي المجيد ألاّ نجعله وراءنا ظهريا ، ونتركه نسياً منسياً .

وفي مجتمعنا عيوب لا ينكرها أحد ، فمن حق هذا المجتمع أن نعالج عيوبه في شتى المجالات بشتى الأساليب ، ومنها الأسلوب القصصي .

وفي حياة كل فرد من أفراد المجتمع قصة ذات دلالة وعبرة ، فمن حق هذه القصص أن يَعتبر بها المجتمع ولا تبقى في نطاق الاعتبار الشخصي .

وكتابي الجديد : (تدابير القدر) الذي أقدِّمه اليوم ، مجموعة من القصص الواقعية التي أردت بعرضها معالجة بعض عيوبنا الفردية والاجتماعية التي نعاني منها ، فكلّ جريمة لها عقاب ، ومَن ينجو من عقاب البشر لا ينجو من عقاب خالق البشر .

والمجتمع المثالي ، يتكوّن من أفراد مثاليين ، يخضعون لرقابة ضمائرهم لا لرقابة الشرطة والقانون ، فقد أخفقت الرقابة الخارجية في أكثر الأحيان ، بينما لا يخفق الضمير الحي في رقابته الصارمة العادلة .

وهذه القصص محاولة لإحياء الضمائر الميتة لتستعيد الحياة من الجديد .

وحياة المرء تنتهي بالموت ، وحياة الدنيا محدودة بالأيام والأشهر والسنين ، وحياة الآخرة بلا حدود ، فلا ينبغي أن نعمل لحياة فانية ولا نعمل لحياة باقية وهذه القصص تحثّ على العمل الصالح في الدنيا للآخرة ، وصدق الله العظيم : (وابتغ فيما آتاك الله الدّار الآخرة ، ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ من الدنيا ، وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إليك ، ولا تَبْغِ الفَسادَ في الأَرض ، إنَّ الله لا يُحِبُّ المُفْسِدِين) .[1]

فإن استطعتُ أن أحقّق أملي في إحياء بعض الضمائر الميتة بهذه القصص الهادفة لتعيدَ بالإيمان الصادق إليها الحياة من جديد ، فالفضل كلّه لله الذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم ، وإلاَّ فإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكّلتُ وإليه أُنيب .

---

(١) الآية الكريمة من سورة القصص (٢٨ : ٧٧)

الرّؤيـا الصَّادقة

- ١ -

ماتت وهي أحوج ما تكون إِلى الموت ، فقد عانت سنين طويلة آلاماً مبرحة لا تكاد تطاق ، من فقرات ظهرها ، وكانت الآلام تشتد ليلاً فتحرمها النوم ، وما أطول الليل على مَنْ لم يَنَمْ !

وقبل سنة تقريباً ، كنت في زيارة زوجها ، فجاءت على استحياء لتقص عليَّ هذه الرؤيا ، وهي تغالب النعاس والوهن .

قالت : رأيت ليلة أمس فيما يرى النائم ، شيخين صالحين جليلين يبدو عليهما الورع والتقوى ، ويشع من وجهيهما النـور ، كأنهما بدران يتألقان . قال الاول : يا ابنتي ! لقد تَعِبْتِ كثيراً وأمضّك الألم ، وأنتِ بحاجة إلى الراحة الطويلة في مُسْتَقَرٍّ مريح ، فتعالي واستقري هنا - وأشـار إلى مكان يجـاور مكانـه الـذي هو فيه - لتستريحي ، ولن تعاودك الآلام في هذا المكان أبدا .

وقال الثاني : يا ابنتي ! سأكون في عونك حين تكونين بحاجة إلى العون ، ولن أنساك أبدا .

كانا يخاطباني كما يخاطب الأب الحنون ابنته الوحيدة ، بل كانا أشد حناناً من الأب الحنون .

ولكنني لم أكن أعرفهما ، ولم يسبق لي رؤيتهما من قبل .

وقلت لهما بكل أدب وبلهجة تنمّ على اعترافي لهما بالجميل : إنني ممتنّة من عطفكما الأبوي عليَّ ، فهل لى أن أعرف مَنْ أنتما ؟

قال الأول : أنا الشيخ عبد القادر الكيلاني .

«وقال الثاني : أنا أبو ايوب الأنصارى» .

قالت تلك التي تحدثني عن رؤيتها : «واستيقظت وأنا مستبشرة بهذه الرؤيا العجيبة» .

وسألتني : «فما تعبير رؤياي ؟» .

قلت لها : «إنَّ رؤية الصّالحين في المنام أو في اليقظة خير وبركة ، فعسى أن يهبك الله الصحة والعافية ، وينالك من الله خير قريب» .

ويومها استقرّ في نفسي ، أنها سترحل إلى العالم الآخر ، فتستريح الراحة الأبدية ، حيث لا آلام ولا شكوى .

ولكنني لم استطع أن أبوح لها بما استقرَّ في نفسي ، فسكتُّ وسكَتَتْ وَسكَتَ معنا زوجها والحاضرون .

ـ ٢ ـ

كانت صاحبة الرؤيا قبل خمسين عاماً خلت في ريعان الصبا ، تعيش مع أهلها في مدينة إسلام بول (اسطنبول) ، مليئة بالحيوية والنشاط ، تتحلّى بالجمال الخارق والخلق المتين .

وكان زوجها البغدادي في تلك الايام في ريعان الصبا ، يملأ الأعين بطوله الفارع وقامته المديدة ، فقد آتاه الله بسطة في الخَلْق ،

ودماثة في الخُلُق ، ومنظراً خلاّباً ، ومظهراً مهيباً ، ومخبراً صافيا .

وكان الشاب يدرس في مدينة الفتاة (إسلام بول) العلوم العسكرية الفنية ، وكان يذهب إلى كليته كل صباح ، فيراها في طريقها إلى مدرستها ، فعزم على أن يتزوج بها ، ودعا الله أن يحقق له أمانيه .

واستجاب الله دعوته ، وحقق أمنيته ، فوافق أبواها على زواجها به ووافقت . وحين أكمل الشاب دراسته عاد إلى بغداد ، وقدمت العروس بغداد أيضاً ، وقدم معها أبوها الشيخ ، وفي بغداد أكملا مراسيم الزواج في دار متواضعة بسيطة .

وعاشا سعيدين في تلك الدار المتواضعة البسيطة ، في إحدى محلات بغداد القديمة ، وبغداد في العشرينات ، غير بغداد في السبعينات .

وكان أبوه الشيخ وأمه يعيشان معهما في تلك الدار ، وكانا قد بلغا من العمر عتيا .

وعكفت العروس على خدمة الوالد والوالدة ، وكانت وحدها في الدار مسئولة عن كل متطلباته ، ولم يكن معها أحد يساعدها ، لكنها نهضت بأعباء الدار ونهضت بأعباء خدمة الوالدين كأحسن ما يكون النهوض .

وزادت أعباؤها بمرور السنين ، فأصبحت أُمّاً لها بنات وبنون ،

ومع ذلك لم تتهاون قط في خدمة والدي زوجها الشيخين ، بل ضاعفت جهودها في خدمتهما .

وانتقلت العائلة من بغداد إلى مدينة الموصل ، وهناك مرض والد الزوج ، وثقل به المرض ، فمات بين يدي تلك الزوجة البارة ، وكانت آخر كلماته حين حضرته الوفاة : «الله يرضى عنك يا ابنتي ، ويستر عليك» .

خدمته أكثر مما خدمه ابنه وزوجته ، وعذر ابنه أنه مشغول بوظيفته الرسمية ، متنقل من مكان إلى مكان ، وعذر زوجته أنها هي الأخرى شيخة أثقلت السنون كاهلها ، وهي أيضاً بحاجة إلى خدمة غيرها ، غير قادرة على إسدائها لأحد .

وانتقلت العائلة بعد حين من الموصل الى بغداد ، وهناك مرضت العجوز أم الزوج ، فخدمتها خدمة الأبناء البررة ، وتركت سريرها في غرفة زوجها ، وانتقلت إلى غرفة المريضة حتى توفاها الله ليلاً بين يديها ، فلم تخبر زوجها بموت أمه ، وانتظرت حتى استيقظ كما يستيقظ كل يوم . وحين كانت تلك الأم تعالج أنفاسها الأخيرة ، رفعت يديها إلى السماء تدعو : «يارب ! إنني راضية عن زوجة ولدي ، فارض اللهم عنها وألبسها العافية والستر» .

لست أنسى حديثها الحنون المستمر الدائب عن والدي زوجها ، وتوجعها الشديد لوفاتهما ، ودعواتها المتكررة لهما بالجنة والمغفرة والرحمة ، فما ذكرتهما مرة إلا واغرورقت عيناها بالدموع الحِرار .

إن شفقتها وحنانها أصيلان ينبعان من صميم فؤادها ، وشعورها

الانساني الحي طبيعي يتدفق كما يتدفق الماء من الينبوع أو من النهر طبيعياً لا تكلّف فيه .

ـ ٣ ـ

وتسنم زوجها أعلى منصب رفيع في صِنْفِه ، وأصبح المرجع الأعلى لذلك الصنْف ، وكانت أشغاله الرسمية كثيرة تملأ وقته ، ولكنه كان يختلس الوقت من أوقاته المزدحمة ليخدم الناس ويعبد الله .

واتصلت أسبابي بأسبابه في الأربعينات من هذا القرن ، فقد جاءنا مفتشاً لكتيبة الخيالة التي كنت انتسب إليها ، وكنت حينذاك ضابطاً صغيراً في صِنْف الخيالة ، وكان ضابطا كبيراً يشار إليه بالبنان .

كانت كتيبتنا في معسكر (جلولاء) ، فزارنا ليطلع على إدارة الخيل وصحتها ، وكان عمل هذا الضابط المفتش الكبير يستمر يومين ، فقضى ليلة في الثكنة التي كنت أعيش فيها ، ونام في غرفة بجوار غرفتي .

وسمعت قراءته للقرآن الكريم في أول الليل ، فاقشعر بدني لخشوعه وحسن تلاوته ، وشعرت بصلاته في الهزيع الأخير من الليل ، فلامس حبه شغاف قلبي ؛ وحين سمعته يرفع صوته باقامة الصلاة في الفجر ، اقتحمت عليه غرفته من غير استئذان واقتديت به . وحين قُضِيَتِ الصلاة ، سلّمت عليه وسلّم ، فعقدت معه صداقة في الله ولله استمرت منذ عرفته تقوى وتشتد ، وتغلغل حبه في

قلبي ، حتى أصبحت أوثر زيارته على زيارة كل إنسان ، واعتبر تلك الزيارة عبادة من العبادات .

كنت أزوره في مكتبه الرسمي بوزارة الدفاع ، كلما قدمت بغداد من (جَلُولاء) مجازاً إجازة أسبوعية ، فلما انتقلت إلى بغداد ازدادت زياراتي له : مرة بواجب رسمي ، ومرة للاستفادة من علمه وتقواه .

وما زرته يوماً ، إلا وتعلّمت منه جديداً ، فازْداد تعلقي به وحبي له وإعجابي به وتقديري لسجاياه .

كان أكثر زائريه من غير العسكريين : يطلبون معونته ، ويتوسطون به ، وكانت دائرته الرسمية تعج دوماً بالزائرين ؛ فكان يتصدق على الفقير ، ويقضي حاجة المحتاج ، ويواسي الضعيف ، ويدفع الظلم عن المظلوم ، ويهش للجميع لا فرق بين صغير وكبير ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين أجير وأمير .

وكنت أزور ضباطه قبل أن أدخل عليه ، لأسألهم عن هوية زائريه ؛ وكثيراً ماكنت أجد ضباطه واقفين على أقدامهم ، لأنهم أعاروا كراسيهم لجلوس الذين قدموا لزيارته ، وكثيراً ما ضاق مكانه بالزائرين ، فاضطر على تنظيم الكراسي للجالسين عليها كما تنظم الكراسي في غرف الدرس في المدارس وقاعات المحاضرات في الجامعات .

ولا يكاد يراني إلا ويسلّمني قسماً من زائريه قائلا : «الله أتى بك الآن ! هذا له معاملة في التجنيد ، وهذا له قضية في مديرية

الادارة ، وهذا ابنه مريض في المستشفى .. أرجوك ان تذهب معهم لقضاء اشغالهم» .

ويمضي في سماع طلبات الآخرين ، ويوالي اتصالاته الهاتفية معاونة لهم ، وهو في خضم هذا العمل الدائب مستغرق لا يكاد يسمع اعتذاري بأن لي عملاً رسمياً في مكتبي ، بل لا يستمع عذرا ولا يقبل معتذرا .. كل همه أن يقضي حوائج الناس .

وأذهب مع الذين أرسلهم معي أجوب شرقاً وغرباً ، فأجد القليل منهم له حق فيما يطالب به ، وأجد الكثير منهم لا حق لهم فيما يطالبون .

وأعود اليه مع الذين لا حق لهم دون أن تقضى حوائجهم ، فأحاول أن أقنعه بوجهة نظر المعتذرين عن قضاء تلك الحوائج ، فلا يصغي إلي ، ويشاركهم آلامهم ، أما الذين قضيت حوائجهم ، فيذهبون إلى بيوتهم ولا يعودون إليه شاكرين !!!

ـ ٤ ـ

كان يستبقيني معه في مكتبه إلى أن يخلو من الزائرين ، ولا يكاد يخلو قبل أن ينتهي الدّوام الرسمي أو تمضي على انتهائه الساعات .

وسمعته يوماً من الأيام يقول لضابط الرواتب في دائرته الرسمية : «أريد أن تقرضني خمسة دنانير» .

وأقرضه ضابط الرواتب خمسة دنانير ، وكانت هذه الدنانير الخمسة

مبلغاً جسيماً في الأربعينات ، يوم كان رطل اللَحم بثلاثين فلساً ، وصفيحة السَمن الحيواني النقي بنصف دينار ، والبدلة مع خياطتها بدينارين !!

وخرجت معه ليعود إلى داره وأعود ، وكنا نسير مشياً على الأقدام ، فلم تكن لكبار الضباط سيارة خاصة ، وكان في وزارة الدفاع سيارتان خاصتان : إحداهما لوزير الدفاع ، والثانية لرئيس أركان الجيش ، وكان للضباط الآخرين سيارات جماعية ، تنقل كل وجبة معيّنة إلى مكان معينَ في وقت معينَ .

وكان من عادته أن يقف على الرصيف المقابل لباب وزارة الدفاع ، وكان أكثر أصحاب السيارات الخاصة يعرفونه ويرجون نفعه ، فإذا رأوه واقفاً عرضوا عليه أن يركب معهم ليذهبوا به إلى المكان الذي يريد .

وحين يغادر مكتبه ، لا يقرر أين يذهب ، وليس له مكان يذهب اليه وقتذاك إلا داره باتجاه (الأعظمية) والاّ مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه بالاتجاه المعاكس . فإذا جاءت سيارة باتجاه داره ، وقال له صاحبها : «تفضل» ! فإنه يذهب إلى داره ، وإذا جاءت سيارة باتجاه مسجد الشيخ الكيلاني وعرض عليه صاحبها الركوب معه ، فرح كثيراً وحمد الله قائلاً : «سيدنا الشيخ يريدني !!!» .

ويوم كانت الدنانير الخمسة في جيبه ، جاءته سيارة متحركة

باتجاه مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فحملتنا إلى هناك .

ودخل المسجد من الباب الصغير ، وكان المسجد في تلك الأيام عامراً بالرجال الصالحين القادمين من مختلف الاقطار الاسلامية : الباكستان ، الهند ، الصين ، تركستان ، المغرب ، يعبدون الله ويجاورون الشيخ المبارك في مسجده الميمون .

واستدار إلى اليمين ، وطرق أول غرفة ودفع لساكنها ربع دينار ، ثم سأله : «هل لديك شوربة ؟» ، فكان جوابه : أكلناها !

وطرق أبواب الغرف كلها ، وكانت عامرة بأولئك الرجال الصالحين : يدفع لكل رجل من ساكني تلك الغرف ربع دينار ، ثم يسأله : «هل لديك شوربة ؟» ، فيتكرر الجواب : أكلناها ... فالشوربة توزّع بعد صلاة الظهر مباشرة ، وهو قد وصل إلى المسجد الساعة الثالثة مساء ، أي بعد ما يقارب الثلاث ساعات من موعد توزيعها ، فلا شوربة في ذلك الوقت المتأخر من اليوم .

وأخيراً طرق باب الغرفة المقابلة للمصلى الصيفي ، وكان يسكنها شيخ كبير من الباكستان يعاني المرض والشيخوخة ، ولكن لسانه لا يفتر عن ذكر الله . وسمعنا صوتاً ضعيفاً خافتاً منبعثاً من داخل الغرفة : ادخل . ودخل ودخلت معه ، فإذا بالشيخ الباكستاني راقداً فوق فراشه في غرفته المظلمة ، وإذا بصاحبي يدفع له ربع دينار ويواسيه ويشجعه ويطلب منه الدعاء ، ثم يسأله : «هل لديك شوربة ؟» .

وقال الشيخ : «لم استطع تناولها لمرضي ، وهي على الرف هناك !» ، وأشار إلى مكانها .

وأسرع صاحبي إلى إناء الشوربة الفخّاري المطلي من الداخل بالخزف الأخضر ، فحملها بيديه كما يحمل الإنسان كنزاً من الكنوز الثمينة ، وقال لي : «اشرب !» .

ورأيت الإناء ، والشوربة باردة ، فلم تطاوعني نفسي أن أشرب منها ، ولكن صاحبي القوي ذا الطول الفارع ، قبض على رقبتي بيسراه ، ووضع الإناء في فمي ، وعبّ الشوربة فيه عبّاً ، حتى ارتشفت منها غير قليل جبراً .

وأخذ الإناء إلى فمه ، وظل يترشف من الشوربة حتى أتى عليها ، وكأنه يتناول أشهى طعام في الدنيا . وحين فرغ الإناء مما حواه ، أعاده إلى مكانه فوق الرف ، وحمد الله كثيراً على هذه النعمة السابغة .

وحدثتني نفسي حديثاً لم يسمعه أحد ، فقالت : إنّ صاحبك على غير وفاق مع زوجته ، فلم تعد له غداءه هذا اليوم ، أو هي خارج الدار فلا غذاء لديه ، لذلك فهو يسأل عن الشوربة .

ـ ٥ ـ

وخرجنا من مسجد الشيخ الكيلاني بعد توزيع الدنانير الخمسة والمال الذي كان يحمله بالإضافة إلى تلك الدنانير ، ووقفنا ننتظر

سيارة متّجهة نحو (الأعظمية) لتنقلنا إلى داره وداري ، وكنا متجاورين في دارين : داره مقابل سكة حديد الصرافية على الطريق المتجهة نحو اليمين ، وداري مقابل تلك السكة على الطريق المتجهة نحو اليسار ، بالنسبة للطريق العام الذي يتجه نحو (الأعظمية) .

ولم يطل انتظارنا ، فصاحبي ذو مكانة ، يُرجى خيره ، ولا يُخشى شره .

وغادرنا السيارة في ملتقى طريق باب المعظم ـ الأعظمية بسكة حديد الصرافية ، فمددت يدي مودعاً ، وكانت الساعة قد قاربت الخامسة مساء ، وكان أهلي ينتظرونني ، ولكنه سحبني سحباً إلى داره ، وقال : «تعال نتغدى معاً» .

واستقبلته زوجته مرحبة ، وكانت عليها رحمة الله ، لا تتناول الطعام إلا معه ، تنتظره مهما تأخر موعد عودته إلى الدار ، وتحسب أن تناولها الطعام قبله عقوقاً له وانتقاصاً من حقه عليها .

وبادرها قائلاً : «إنّ معي ضيفاً ، وهو واقف بالباب» .

ودخلت الدار ، وجلست في غرفة الضيوف لحظات ، فكنت أرى وجهي مرتَسِماً على مساند الأرائك اللّماعة من شدّة النظافة ، وأجد رائحة عطرية تنبعث من أرجاء الغرفة ، وأرى الطنافس تزهر كالورد من نظافتها .

ولم ألبث إلاّ قليلاً في غرفة الضيوف ، ثم سمعت صوته يقول : «تفضل» .

ودخلت غرفة الطعام ، فوجدت طعاماً مُعَداً لم أر مثله من قبل ولا من بعد : في تعدّد ألوانه ، ونفاسة طهيه ، وترتيبه على المائدة ، والأزهار التي حوله ، والمشهيات والمقبلات التي تحف به .

وابتدأنا بالشوربة التي لم أذق ألذ منها حتى اليوم ، ثم ثنّينا وثلّثنا ، وربعنا في أطعمة شهية ، ويكفي أن أذكر أنه كان على المائدة ستة أنواع من المقبلات (الزلاطة) .

حينذاك علمت ، أنّ الرجل كان يفتّش عن الشوربة في غرف الصالحين القاطنين مسجد الشيخ الكيلاني ، للبركة والتبرك بها ، لا ليشبع بطنه من سغب وجوع ، فهي شوربة معنوية في حسبانه ، لا صلة لها بالمادة وأثرها المادي .

وقضى المدة المقررة له في الجيش ثم خرج منه ، واستقر في داره متقاعداً ، فانفض عنه من كان يعتبرهم من أخلص اصدقائه .

لقد كان يعتبرهم أصدقاء ، ولكنهم كانوا أصحاب مصالح ، فكانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم : يظهرون له الود ، ويتسابقون في إطرائه ، ويسمعونه مايشتهي أن يسمع ، لأنه كان يقضي مصالحهم الخاصة . فلما أصبح متقاعداً ، لا يضر ولا ينفع ، تخلّوا عنه ، فخلت داره من الزائرين ، وأصبح وحيداً لا يؤنسه غير زوجته وذوي قرباه .

ولكنه لم يتغير أبداً ، وظلّ سعيداً مرتاح الضمير .

ودأبت على زيارته أكثر من قبل ، فقد كنت أحبه لله ، والله باق ، ومزاياه الشخصية التي أحببته من أجلها باقية ، بل إنها ازدادت في نظري كثيراً ، لأن الوحدة وتوجهه بكل طاقته لله ، أكسباه اشعاعاً روحانياً لا يوصف وكسياه نوراً سرمدياً لا يخبو .

وكلما ازداد عزلةً ، ازددت به صلة ؛ وكلما ابتعد عنه الناس ، ازددت منه قرباً ، وكنت ولا أزال أشعر بلذة معنوية لا حدود لها كلما ازددت به التصاقاً .

خرج من الجيش وهو لا يملك غير راتبه التقاعدي ودار متواضعة ، وكان بإمكانه أن يحرز الملايين ، لأنه كان في مركز مرموق يغدق على صاحبه المال بغير حساب .

ولكنه عفّ عفافاً مثالياً ، والعفاف في القادرين قليل .

وبعد مدة قليلة من تقاعده باع بيته ليعين بثمنه أولاده على

إكمال دراستهم وعلى تحمل أعباء الحياة ، فبقي معدماً لا يملك ديناراً ولا داراً .

والعجيب من أمره ، أنه كلما ازداد فقراً ، حمد الله وشكره وبالغ في الحمد والشكر . وارتحل إلى خارج البلاد ليكون إلى جانب ولده الذي يدرس هناك ، وبعد سنوات عاد إلى وطنه ، فاستقر في دار متواضعة جداً ، استأجرها بثلث راتبه التقاعدي ، وعاش ومَنْ يعول بالثلثين الباقيين عيش الكفاف .

وغادرت البلاد إلى مصر بمهمة علمية استمرت خمس سنوات ، فكانت الرسائل بيننا تترى ، وكان شوقي إليه في كل يوم يزداد .

وعدت إلى الوطن ، فكان أول ما قمت به بعد عودتي زيارته ، وكان وقت لقائي به من أسعد الاوقات .

وكان مريضاً يوم عدت إلى العراق وكنت مريضاً ، فما زرته مرة إلاّ شعرت أن وطأة مرضي خفت وإلا شعر ايضاً ، حتى تماثل للشفاء .

وكان أصحابي من أرباب السيارات حين يزورونني يقولون : ألا تبرح الدار لترفه عن نفسك شيئاً قليلاً ؟!

وأقول لهم : «دعونا نرفه عن أنفسنا بجولة روحانية .. هلموا بنا إلى دار الرجل المبارك فلان» ....

ونزوره في داره ، فيهش لنا ويبش ، والمسافة بين داري في

(اليرموك) وداره في (الاعظمية) ذهاباً وإياباً تقرب من أربعين كيلو متر !

بعد عام من عودتي إلى العراق ، حدثتني زوجته بتلك الرؤيا الصادقة التي قصصتها عليك في صدر ما قرأت .

وازدادت آلامها ، فنصحها الاطباء بازدراد حبات مهدئة ، وهي حبات تخدر ولا تشفي ، وتخرب ولا تبني : تهدىء النفس ساعات وتحطمها سنوات ، وتطمئن المريض ساعة وتستثيره الى قيام الساعة .

وأخذت تذوي وتذبل ، وبدأت تذوب كما تذوب الشمعة ، لكنها بقيت حريصة على أداء واجباتها البيتية كأحسن ما يكون الأداء ، قائمة على خدمة زوجها كأفضل ما يكون القيام .

وازداد لونها امتقاعاً ، وازداد وجهها اصفراراً ، وتضاعف ارتجاف يديها وساقيها ، وانحنى قوامها إلى الأمام ، واصبح صوتها ضعيفاً متهدجاً .

كان كل شيء في بدنها يسير رويداً رويداً إلى الانحلال ، ولكنّ عقلها بقي سليماً ، ومنطقها بقي متزناً ، ومعنوياتها بقيت عالية .

وفي يوم الاربعاء (٢٠ ذو القعدة ١٣٩٤ ـ ٤ كانون الاول ١٩٧٤) جاءها الأجل الموعود ، فذهبت إلى جوار الله .

في صباح ذلك اليوم الكئيب الذي لن أنساه أبداً ، اتّصلت هاتفياً

بزوجها ، فقال لي : «زوجتي مريضة أكثر من السابق» .

وقلت له : «سأحضر فوراً إلى دارك» .

واتصلت بجار صديق يمتلك سيارة ، فجاءني وذهبت مسرعاً إلى الأعظمية ، فلما دخلت داره رأيته كعادته مسروراً متفائلاً .

لم يتطرق أبداً إلى وضع زوجته الصحي ، وتدفّق في حديث روحاني متصل ، كأن شيئاً لم يحدث ، فقلت له : «وكيف حال زوجتك ؟» .

قال : «في الغرفة المجاورة ، تعاني آلاماً مبرحة من مرضها الشديد» .

ونهضت لأراها ، فإذا هي مسجاة على سريرها ، لا تكاد تشعر بما حولها ، ينبعث منها أنين خافت ضعيف .

وذهبت مع جاري ، واستقدمنا طبيباً حاذقاً ، فأعطاها الدواء ، ولما كاد أن يغادر الدار سألته : «كيف حالها» ؟ فقال : «تعاني سكرات الموت ، وستموت اليوم أو غداً» ...

كان ضغطها خمس درجات ، وكان نبضها ضعيفاً وكان العرق يتصبب منها ، كأنها في عز الصيف تحت الشمس المحرقة . وعدت اليها فإذا بها تطلب منديلاً ورقياً ، فبادرت إلى إعطائها ما أرادت ، فقالت : «أشكرك» ثم ابتسمت ابتسامة مفارق .

لم تنس وهي في سكرات الموت ، أدبها الجم وخلقها الرفيع وتربيتها العالية ، وأشهد انني لم أر مثلها أدباً وتربية وأخلاقاً ، كما لم أر مثلها إدارة للبيت ونظافة ونظاماً .

إن مثلها في النساء قليل ، ومثلها لا يتكرّر إلا نادراً .

ـ ٧ ـ

وبقيتُ مع زوجها حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فأراد جاري الذي جئت بصحبته أن يعود إلى أهله ، فاستأذنت زوجها للعودة إلى داري ، وقلت : «أخبرني بما يكون» .

وفي الساعة الواحدة والنصف رنّ جرس الهاتف في داري ، فلما رفعت السماعة تردّد في أذني صوت زوجها الذي لا أُخطئوه أبداً قائلاً : «ماتت عمّتُك» ... ثم أجهش بالبكاء .

وعدت أسأل جاري الصديق أن يحضر بسيارته ، فحضر مسرعاً ، فوجدني على باب داري منتظراً . وكان نعيها قد هزّني هزاً عنيفاً ، فداهمني الدوار الشديد ، وشعرت بالغثيان العنيف ، وامتقع لون وجهي ؛ فلما قطعت السيارة مسافة نصف ميل عن داري ، التفت اليّ الجار الصديق ، وقال : «أنا أقوم عنك بالواجب ، فاقترح عليك أن تعود إلى الدار لتستريح» .

وقلت له : «أسرع إلى دار المرحومة ، وليكن ما يكون» .

وفي دار الزوج ، وجدنا أشخاصاً قليلين ، فسألتهم : «هل من معاونة ؟» .

فقيل لي : كل شيء جاهز .

ولم يكن هناك شيئاً جاهزاً !!!

وفي الساعة الثالثة التفت اليّ الزوج قائلاً : «أريد أن تدفن

المرحومة في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وهذا كان أملها ، فحقق لي ولها ذلك الأمل» .

وكنت أعتقد أنّ تحقيق هذا الأمل مستحيل ، ولكنني قلت : لنحاول .

ووفّق الله بسهولة ويسر هذا الأمل الصعب المستحيل ، فقد علمت أنّ شخصيات كبيرة جداً ، حاولت قبل موتها أن تحصل على وعد لدفنها في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني فلم تفلح ، كما حاول أهل شخصيات كبيرة جداً بعد موتها أن تحصل على موافقة لدفنها في تلك المقبرة فاخفقت .

ولكن المُيَسر يسر الأمور .

وفي الساعة الرابعة عصراً ، قلت لزوجها : «هيا بنا نحمل المرحومة إلى مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني» ، فلما وصلنا إلى المسجد كان القبر غير جاهز ، وقيل لنا : انتظروني ساعتين .

ووضعنا جثة المرحومة ، وحول صندوقها الذي احتواها علم الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه ، على المصطبة العالية في مدخل حرم المسجد ، ثم جلسنا في ديوان الحضرة الكيلانية ننتظر موعد صلاة المغرب .

وصلينا المغرب في حرم مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وحين قضيت الصلاة ، نادى الامام يدعو المصلين إلى الصلاة على امرأة مسلمة .

واستجاب لنداء الامام عدد قليل من المصلين ، فقد شغل قسم منهم بالزيارة ، وشغل قسم منهم بالتسبيح والذكر ، وشغل آخرون بالحديث ، مع أنّ الصلاة على المسلم أو المسلمة واجب على المسلمين وحق من حقوق الميت على الحي .

كنت حين بدأ الامام يسوي الصف للصلاة على الجنازة أقول في نفسي : حقّق الله رؤيا المرحومة في دعوة الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه لتكون إلى جنبه ، فدفنت بجواره .

فأين مكان أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه في رؤياها ؟؟!!

وفجأة وقفت سيارتان كبيرتان ، تحمل كل واحدة منهما ثلاثين حاجاً من الأتراك ، ترجلوا مسرعين ودخلوا من باب المسجد مهرولين باتجاه حرم المسجد .

ووجدوا أمامهم صفا يريد الصلاة على المرحومة ، فانضموا الى ذلك الصف ، وشاركوا في الصلاة .

وبعد أن قضيت الصلاة ، التفتوا يسألون : من هو قريب هذه المرأة المسلمة المتوفاة ؟

ولم يكن بين المصلين من يتكلم التركية غير زوجها !

وأقبلوا يسلمون على زوجها ويعزونه واحداً بعد واحد ، يقول هذا : أنا من اسطنبول ، ويقول الآخر : وأنا كذلك .... ويقول ثالث : أنا إمام مسجد أبي أيوب الانصاري ، ويقول رابع : أنا خطيب مسجد أبي أيوب الانصاري ....!!

ووقفت مذهولاً أمام تحقيق هذه الرؤيا الصادقة مئة بالمئة .

ولكن ازداد عجبي وذهولي حين حملنا المرحومة الى قبرها ، فقد وجدت القبر الذي دفنت فيه قريباً جداً من ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني ، ليس بين قبرها والضريح غير الحائط الخارجي الذي يفصل بين المقبرة والضريح .

وجلجل صوت المؤذِّن لصلاة العشاء ، عندما كان المشيعون في المقبرة يهيلون التراب على الجدث الطاهر ، وبدأ تساقط رذاذ المطر رحمة من السماء ، فتخيّلت كلمات المؤذن للصلاة ورذاذ المطر الهاطل تتحول الى رحمات على الفقيدة تنير قبرها الذي بدأ يتألق قليلاً قليلاً حتى توهّج ، فغطى على أنوار المصابيح الكهربائية التي بدت لناظري خافتة كشمعة تحاول أن تنافس الشمس الساطعة ظهراً .

واخذتُ بيد زوجها ، وسرنا الهوينا بين القبور ، حتى غادرنا مملكة الموت الى دار الحياة . ثم دخلنا حرم مسجد الشيخ عبد القادر لنصليّ مع المصلين صلاة العشاء .

وعدت معه إلى داره ، فلما استقرّ به المكان واستراح قليلاً عدت الى داري ، وفي خلدي تلك الرؤيا الصادقة ، وأنا أقول لنفسي : أيمكن أن يكون تحقيق هذه الرؤيا بمثل هذا الوضوح ، صدفة من الصدف ؟!

وبعد يومين من دفنها ، قدم بغداد جماعة من الحجاج الأتراك ، فيهم مفتي اسطنبول ، ولواء متقاعد ، وطبيب كبير ، وتاجر معروف ، زاروا زوجها في داره ، وقدموا له العزاء !

مرة ثانية : هل حدث كل ذلك صدفة !

تتمة الرؤيا الصادقة

- ١ -

بقي زوج صاحبة الرؤيا الصادقة بعد رحيلها عنه إلى جوار الله يتيماً ، إن لم ينطبق عليه اسم اليتيم في اللغة فإنّ صفاته ومعانيه تنطبق عليه انطباقاً كاملاً .

وكان الذي يراه قابعاً في زاوية من زوايا داره ، ساهماً حزيناً متألماً ، يقول عنه : ليس اليتيم فَقْد الطفل والديه أو أحدهما ، بل اليتيم فَقْد الزوج زوجته وهو شيخ كبير .

وأثّر رحيلها في صحته فانهارت كما ينهار البناء القديم ، وتكاثرت عليه العلل والأسقام ، فهي تزوره مجتمعة أو على انفراد في كل يوم ، ولا تغيب عنه ليرتاح قليلاً .

وأثّر رحيلها في مظهره ، فبدا أكبر من عمره ، كأنه ازداد في عمره عشرات السنين .

وفَقَد الأنيس والجليس الذي يرافقه مدى الحياة ، فشعر بالوحشة بعد الأمن والقلق بعد الاطمئنان والوحدة بعد الاجتماع .

وكنتُ أزوره كثيراً بعد أن أقفرت داره من الزُوَّار ؛ أطمئن على صحّته ، وأسليه بعض الوقت ، وأحاول أن أحمل عنه بعض همومه ، فأنجح مرة في إدخال السرور على قلبه البائس ، وأُخفق مرات .

وكنت أشعر حين أجلس إليه وأحاول أن أحدِّثه ، أنه يحمل هموماً كالجبال لاسبيل إلى حملها ، لأنها فوق طاقة البشر . فبت أخشى عليه أن يموت كمداً .

ولست أنسى يوم زرته في يوم من أيام الشتاء القارص ، وكان المطر ينهمر مدراراً ، والرياح تعصف بشدة كأن صوتها قصف المدافع ، وكان إحساسي الداخلي يلّح عليّ بالإسراع إليه ، وكان برفقتي صديق يقود سيارته ، فيحدِّثني في الطريق من مستقري في حي (اليرموك) إلى داره القريبة من (الأعظمية) ، فلا أبادله الحديث ولا أصغي إليه ، فقد كنت في شغل شاغل عن حديثه ، وكان فكري بعيداً عن الدنيا وما فيها ، مع الصديق الوحيد المريض ، يفكر في أمره وحاله وصحته وعافيته وانفراده ووحدته .

واقتحمت مع الصديق عليه داره هرولة ، كأنّ المطر المتساقط يستحثنا على الإسراع ، أو كأن غير المطر هو الذي يستحثنا ، لاأدري ما هو بالضبط .

لا أنسى أبداً ما حييت كيف اقتحمنا عليه غرفته فإذا به على الأرض مكبّاً على وجهه ، والغرفة مظلمة بالدخان المتصاعد من

المدفأة النفطيّة ، والشبابيك والأبواب موصدة ، والشيخ الكبير يسعل سُعالاً متصلاً و يعاني من الاختناق ، ودموعه تنهمر من عينيه كأنها تنافس المطر المنهمر تنافساً غير متكافىء .

وسارعت بحمل المدفأة إلى خارج الدار ، وفتحت النوافذ والأبواب ، وحملت الشيخ إلى فراشه بمساعدة صديقي المرافق لي ، وأنا لاأصدّق أنَّ الشيخ على قيد الحياة .

ومكثنا بالقرب منه ساعة ، أسعفناه خلالها بالاسعافات التي تعلّمت شيئاً منها في الخدمة العسكرية .

ولما عاد إلى رشده أو بعض رشده ، حدثنا أنه أراد استصلاح المدفأة النفطية التي كانت تنفث الدخان ، فنهض متوكئاً على عصاه ، ولكنه عثر بعصاه فسقط على حافة المدفأة ، فارتجّت وازداد تصاعد دخانها ، فعجز عن النهوض ثانية من أثر اصطدامه بالأرض وشيخوخته ومرضه .

وحينذاك حمدت الله الذي دفعني دفعاً لمغادرة داري في يوم قارص البرد مطير ، وأن أسرع لزيارته في داره ، فلولا هذه الزيارة لقضى نحبه ، والأعمار بيد الله .

لقد كان في وضعه الراهن كالمحكوم عليه بالموت صبراً .

- ٢ -

كان يعيش في داره مع ابنته البكر ، وهي موظفة ملتزمة بالدوام

الرسمي ، تغادر البيت صباحاً وتعود إليه مساء .

وكان في الدار خادمة متزوجة لديها أولاد كبار وصغار ، لايراقبها أحد بعد موت ربّة الدار ، فهي تأتي في الوقت الذي تريد ، وتغادر في الوقت الذي تشاء ، وتعمل ما تعمل كما يحلو لها ، لاتخضع في مواقيتها وعملها لغير وجدانها الذي كان ميتا كما يبدو أو كان في إجازة طويلة لاتنتهي أبداً .

وفي الواقع كانت حياته مُرَّة لاتطاق ، وكان لابدّ من إيجاد حلٍ لمشكلته ، وإلا انتهت حياته ومضى إلى الله مأسوفاً عليه .

والحياة إذا اجتمعت عليها عوامل الشيخوخة والمرض والوحدة والحزن لا تبقى حياة بل تصبح عذاباً أخفّ منه الموت .

كان الحل الوحيد لمشكلته هو أن يتزّوج من جديد ، ليجد إلى جانبه امرأة تعينه على أعباء الحياة .

ونُوقشت مشكلته مرات ومرات مع أهله ، دون جدوى ، وكان النقاش معهم يصل دائماً إلى طريق مسدود .

كان بحاجة مُلِحّة إلى امرأة لا تفارقه لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذه المرأة ينبغي أن تكون زوجته ، إذ لا تصبر على خدمته إلاّ زوج مخلصة حنون .

وكانت المشكلة التي يعانيها وتقتضي من الجميع حلاً عاجلاً ، تصطدم بعقبتين : الأولى وجود ابنته البكر معه في الدار ، وليس من

السهل أن تقبل زواجه بامرأة تشاركها في المسكن وتحلّ محَل أُمها المتوفاة ، وهذه طبيعة بشريّة مفهومة ليس من السهولة التغلب عليها .

والعقبة الثانية الأصعب حلاً ، هي اقناع امرأة ذات صفات معينة أن تكون زوجاً له ، وهو شيخ كبير مصاب بأمراض شتى ، لا يملك غير راتبه التقاعدي الذي لا يكاد يسدّ نفقاته الشهرية إلاّ بشق الأنفس ، وهو بعد ذلك فقير ليس لديه دينار ولا دار .

والفلوس وحدها تأتي بالعروس ، والرجل خالي الوفاض من الفلوس ، بل هو لغيره من أصدقائه مدين .

فمن ترضى بشيخ كبير فقير مريض يكون لها بعلاً .

ـ ٣ ـ

وتدّخل القدر في الوقت المناسب ، فحلّ مشكلة الشيخ بأسلوب عجيب .

كان الشيخ قد دأب على الاتصال هاتفياً بأصدقائه ، فيكلِّمهم بعض الوقت ليتسلىّ بمخاطبتهم في وحدته الرهيبة .

وكنتُ في زيارته وهو يكلِّم هاتفياً أحد أصدقائه الذين لا أعرفهم ، فردّت عليه أُنثى معتذرة بأن أخاها خارج الدار .

وأقفل الهاتف ، وحدثني عن صديقه الذي خاطبه ، وشقيقة صديقه التي أجابت على مكالمته الهاتفية ، فعلمت منه أن الأنثى

التي ردّت عليه آنسة ، وهي كثيرة التدين ، من عائلة معروفة بالتقوى والورع والاستقامة .

وقلت للشيخ : ولماذا لا تتزوجها ؟! فتنهّد ثم سكت ، كأنه يتمنى ما لا يقدر عليه .

وطال جلوسي معه في بيته ، فأعاد مكالمة صديقه هاتفياً .

ولم يكن صديقه قد عاد إلى داره ، فأجابت شقيقة صديقه ، فاختطفت منه الهاتف وكلمتها .

قلت لها : أنا فلان ، فعرفتني ورحّبت ، فقلت لها : لماذا لا تتزوجين الشيخ ؟! ولم تُجِبْ على تساؤلي ، فقد أجهشت بالبكاء ... ثم انقطعت المكالمة الهاتفية .

وأعترف أن الكلام الذي وجهّته للآنسة هاتفياً صدر عني بدون إرادتي ، فلما أجهشت بالبكاء ندمت على ما فرطت في قولي أشد الألم ، وحاسبت نفسي على هذه الهفوة أعنف حساب .

وأردتُ أن أعتذر للشيخ ، ولكنني فوجئت بأنه شكرني على كلامي قائلاً : لقد قلتَ لها ما كنتُ أحب أن أقوله لها ، ولكنّ شجاعتي خانتني مرات كثيرة ، فجزاك الله عني خير الجزاء .

ولم أفهم حقيقة الأمر في حينه ولم تتّضح لي الصورة وضوحاً كافياً ، فاستأذنت من الشيخ وعدت إلى الدار .

وبعد أيام معدودات عُقِد قران الشيخ على الآنسة المصون في

المحكمة الشرعية أمام القاضي ، فأصبحت زوجه بسنة الله ورسوله .

وهكذا حلَ القدر العقبة الثانية التي حدثتك عنها ، وهي عقبة كأداء ومعضلة مستعصية حقاً .

وبقيت العقبة الأولى ، وهي وجود ابنته البكر معه في بيته ، وهذه العقبة جعلت انضمام زوجه إليه في داره أمراً صعباً .

وتدخل القدر ثانية ، فجاء مَن يخطب ابنة الشيخ ، فوافقت بعد تمنّع ، وزفَت إلى زوجها ، وغادرت دار أبيها إلى دارها الجديدة .

وفي اليوم التالي زُفّت عروس الشيخ ، وانتقلت إلى داره .

ـ ٦ ـ

وقدمتُ مع أصحابي نقدِّم التهاني للشيخ العريس وعروسه ، فسمعنا عجباً .

لقد حدثتنا بأن الشيخ الحراني عليه رحمة الله ، الذي كان يعيش في تركيا ، قد قال لها قبل سنين طويلة : إذا خطبك الشيخ فتزوجيه !!

وكانت زوج الشيخ الأولى صاحبة الرؤيا الصادقة حينذاك على قيد الحياة أقوى ما تكون صحة وأسلم ما تكون عافية .

وماتت زوجه الأولى ، وبقي الشيخ وحيداً فريداً شريداً ، أحوج ما يكون إلى الزوجة الصالحة ذات الحسب والدين .

وأنطقني القدر على الرغم مني ، فكلمتها هاتفياً وخطبتها للشيخ ، فأجهشت بالبكاء ، لأنها تذكرت وصية الشيخ الصالح الحراني .

وكما أنطقني القدر ، أنطق الحراني كذلك ، فذكر لها بدون إرادته ولا وعيه .

والقدر هو الذي يحرك القلوب والأنفس والألسنة ، لأنَ الغيب في علم الله ، ولا يعلم الغيب إلا علاّم الغيوب .

واليوم تغمر السعادة قلب الشيخ الكبير ، وتعمر الفرحة داره ، وقد تحسّنت صحته كثيراً وأصبح ينعم بالحياة .

وأصبح الشيخ لا يكتفي بالاستقرار في داره ، تسهر على راحته زوج تعتبر خدمته عبادة ، بل يسافر بصحبة زوجه إلى سورية زائراً والى الديار المقدسة معتمراً ، والى تركيا مصطافاً .

وسمعت العروس تقول على ملأً من أصحابي : الحمد لله على توفيقي لخدمة زوجي ، ولا أمنية لي في الحياة غير السهر على راحته ... الحمد لله ....

تُرَى ....!!

هل كان باستطاعة البشر حلَّ مشكلة الشيخ واجتياز العقبتين اللتين تحولا دون زواجه ؟

لقد عجز البشر ، فتدخل القدر ....

لقد شهدتا

- ١ -

نشأ وترعرع في بيئة تستحلّ السَّلب والنّهب والقتل ، تقطع الطُرق ، وتسلب الناس ، وتنهب المال والمواشي ، وتروِّع الآمنين ، وتقتل المسلوب إذا خشيت افتضاح أمرها وخافت العقاب .

وكان الفتى يُنْصِتُ بإعجاب شديد إلى أحاديث قُطّاع الطرق ، وهم يُضفون على أعمالهم سمات البطولة ، وعلى أنفسهم سمات الأبطال ، كما يضفي عليهم الذين يسمعون أحاديثهم من أضرابهم سمات الرجولة ، فيتبختر السكارى في غيِّهم وانحرافهم كأنهم خالدون في الدنيا ، وليست لحياتهم نهاية كما كانت لها بداية ، ولا على ما اقترفوه من حساب .

وحين بلغ الفتى عشرين سنة من عمره ، أصبح مؤهلاً ليكون عضواً عاملاً نشيطاً في عصابة من قطّاع الطرق ، لأنه مرّ بتجارب عملية في السرقة بدأت صغيرة الثمن سهلة التنفيذ ، ثم تطوّرت بالتدريج ، حتى أصبح من ذوي الخبرات في السرقات .

وامتزج الفتى ولداته من قطّاع الطرق الوالغين في خيال البطولة الزائفة ، الحريصين على اقتناص المال الحرام .

ومضت السنون سريعة ، وهو يرتقي سلّم مناصب العصابة ، حتى غدا رئيساً لعصابته ، فكان يسطو على الناس ، ويسطو على أقرانه ، محتجزاً لنفسه حصّة الأسد من حصيلة الأسلاب .

وجمعَ من المال الحرام مبلغاً ضخماً ، فبدَّده على موائد الميسر ومجالس الشرّاب والمواخير ، والمورد الحرامِ يُنْفَق على الحرامِ ولا يُخلِّف غير الآثام والخراب .

- ٢ -

وعلم أن أحد تجار الأغنام والمواشي الموصليين الكبار قدم مدينته (حلب) ومعه عدد من قطعان الأغنام والأبقار والابل ، وانه سيعرضها للبيع في (حلب) ، وقد استقر في أحد الخانات ليقضي فيه ليلته ، وكانت الخانات في أيام العثمانيين تقوم مقام الفنادق في الوقت الحاضر .

وأوكل أمر مراقبة تحركات التاجر الموصلي إلى أحد أعضاء عصابته ، فكان هذا الرقيب يؤدي ساعة بساعة إلى رئيس العصابة كل أخبار التاجر الغريب .

وأصبح الصباح ، فيمَّم التاجر وجهه شطر سوق المواشي في حلب الشهباء ، وعرض قطعانه على تجار الجملة ، فيسّر الله عليه بيعها ، وأكمل بيع ما معه قبيل المغرب ، وقبض أثمانها نقداً ، ثم حمل ماله معه ، وعاد ورعيانه إلى حيث مستقرّه في الخان .

وكان التاجر يحمل نقوده في (خُرْج)[١] على بغلة يمتطيها ، وحوله

الرعاة والذين استقدمهم معه ، وكانوا ينتسبون إلى احدى القبائل البدوية التي تعيش في البادية ، وهم أجراء يرعون القطعان ويحمونها ويحمون التاجر وشركاءه ذهاباً وإياباً .

وفي طريق عودة التاجر من سوق الأغنام والمواشي في ضاحية (حلب) إلى (الخان) الذي يأوي إليه في قلب المدينة ، كمن له رئيس العصابة ومعه قسم من أفراد عصابته ، وكان قسمها الآخر يراقب التاجر عن كثب .

وحين وصل التاجر ومَنْ معه من الرعاة إلى بطن الوادي الذي اتخذته العصابة كميناً لها ، صاحت العصابة فجفلت بغلة التاجر ، فسقط أرضاً ؛ ولم يعد إلى رشده من هول المفاجأة ، إلاّ ورئيس العصابة قد انتزع الخرج من فوق الدابة التي هامت على وجهها هاربة ، وعلا التاجر ممتطياً صدره ، وقد سلّ خِنجره ، بينما كان أفراد العصابة يطاردون الرعاة يميناً وشمالاً ، فهرب أكثرهم وجُرح عدد منهم وقتل آخرون .

واستغاث التّاجر ولا مغيث ، فتوسّل برئيس العصابة ، وعرض عليه لاهثاً بكلمات متقطِّعة التنازل عن المال لقاء الإبقاء على حياته ، ولكنّ خِنجر القاتل كان يعمل عمله في جسد التاجر ، حتى أصبح جثة هامدة يسبح بدمه المتدفِّق من عروقه .

وكان التاجر في استغاثته وتوسّله ، ينظر يميناً وشمالاً ، لعله يجد من يغيثه ويستجيب لتوسله ، ولكنه لم يجد أحداً من الناس ،

ووجد فوق الشجرة التي ذُبح تحتها حمامتين ، فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : «أيتها الحمامتان ! إشهدا ...» .

وقهقه قاطع الطريق وهو ينهض عن فريسته بعد أن فارقت الحياة قائلاً : «أيتها الحمامتان ! إشهدا» ...!

ومضى إلى سبيله ، وهو يقهقه ، كأنه سمع نكتة بارعة ، تستدر القهقهة والضحك والابتسام .

وانتظر أولاد التاجر وأهله في الموصل عودة أبيهم ومعيلهم إليهم من رحلته التجارية ، وطال انتظارهم دون جدوى .

وقصد ولده الأكبر مدينة (حلب) ، فقيل له : إن والده نزل الخان الفلاني وباع أغنامه ومواشيه في اليوم الفلاني ، وَوُجِدَ مقتولاً في اليوم الذي باع فيه قطعانه ، ودفن في مقبرة الغرباء ، وقاتله وسالب أمواله مجهول .

ودق باب الوالي ، وباب القاضي ، وأبواب مَن يعرف من الناس وَمَنْ لا يعرف أيضاً ، فكان جواب كل مَنْ طرق بابه : القاتل السَّارق مجهول الهوية !

وبذل جهوداً مضنية ليعرف شيئاً عن سرِّ مقتل أبيه ، ولكنّ جهوده ذهبت أدراج الرياح .

وعاد الفتى إلى الموصل ، فطرق باب الوالي ، وباب القاضي ، يسألهما العون ، فكتبا إلى والي حلب وقاضيها ، فكان الجواب :

القاتل السالب مجهول الهوية !

وانتهت قضية التاجر القتيل إلى باب مسدود ، فتقبّل أولاده وأهله التعازي ، وأوكلوا قضيّته إلى الله .

- ٣ -

وتعاقبت السنون ، وتبدل ولاة حلب وقضاتها مرات ، ونسي الناس قصة الاغتيال والسلب ، ونسوا القتيل السليب ، ولكن رجلاً واحداً لم ينس تلك القصة ، هو القاتل السالب .

ظلّ يذكرها وبخاصة حين يرى الحمام مُرفرفاً أو على الشجر ، أما إذا صادف حمامتين تتناجيان فوق شجرة من الأشجار ، فإن شبح القتيل يتخايل أمامه وهو ينادي : «أيتها الحمامتان !... إشهدا» .

وفي يوم من الأيام ، لبّى دعوة من دعوات العشاء على مائدة أحد أقربائه ، أقامها بمناسبة عرس أحد أولاده .

وكانت الوليمة تضم أشتاتاً من الناس وألواناً ، من موظفين وتجار وأرباب حرف ومتعلمين وأميين ...

ومدّت الموائد العامرة بأصناف الأطعمة الشهيّة الفاخرة ، فتحلّق حولها المدعوون ، كلّ حلقة حول مائدة من الموائد ، وجلس صاحبنا في إحدى الحلقات .

ونظر إلى أطباق الطعام ، فوجد أمامه مباشرة طبقاً فيه حمامتان .

وحملق الرجل بالحمامتين المحمرتين طويلاً ، وتذكر قصة القتيل

الذي استنجد بالحمامتين لتشهدا له ، فأطرق رأسه يستعيد تفاصيل تلك القصة بكلّ أبعادها ، ثم قهقه قهقهة لا إرادية يستعيد بها قهقهته الإرادية وهو يجُهز على القتيل ، كأنه نسي الوليمة والمدعوين وعاد بذاكرته إلى الماضي البعيد ، فهو حاضر كالغائب ، أو غائب كالحاضر .

ولفت بوجومه الطويل وقهقهته مَن حوله من المدعويين ، وبخاصة قهقهته الطويلة التي لا مناسبة لها ، فليس هناك حديث أو عمل يستثير الضحك ، ولم يكن هناك ما يدعو للضحك قولاً ولا عملاً ؛ كما لم يكن هناك ما يدعو للوجوم الطويل ، فالوليمة من ولائم الأعراس التي تشيع فيها الأفراح ولا تشيع فيها الأتراح .

ولاحقته الأنظار المستغربة والأسئلة المبهمة ، وبشكل لا إرادي تنهد طويلاً ثم انطلق يحُدِّث مَنْ حوله قصة المنكوب بروحِهِ وماله ، كأنّ قوة خفيّة قاهرة تحرِّك لسانه بشكل لا إرادي ، فلم يترك شاردة ولا واردة من قصَّته إلاّ وأفشاها للحاضرين .

ولم يكد يتم حديثه إلا وشعر بأن عبئاً ثقيلاً قد تخلىّ عن عاتقه ، ولكن حديثه أذهل الحاضرين ، فانتقل ذهولهم إليه بالعدوى .

وثاب إلى رشده ، فندم على إفشاء سرِّه ، ولكن بعد فوات الأوان .

كان لسانه ينطق فلا يقدر على ضبطه ، كأنه لم يبق لسانه بل أصبح لسان قوة قاهرة لا سبيل إلى صدِّها .

ـ ٤ ـ

وأصبحت القصة بعد ساعات من إذاعتها ، حديث المجالس في كل مكان من مدينة (حلب) الشهباء .

وسمعها والي حلب كما سمعها غيره من الناس ، فأمر بتوقيف المتهم على ذمة التحقيق .

وأمر قائد الشرطة أن يبدأ التحقيق الرسمي ، فاستقدم الذين سمعوا القصة من المتهم مباشرة وهم على مائدة العشاء ، فسجّل أقوال الشهود .

واستدعى قائد الشرطة المتّهم ، وأطلعه على أقوال الشهود ، فانهار المتهم واعترف بجريمته النكراء .

وأحيلت أوراق القاتل إلى قاضي المدينة ، فحكم عليه بالاعدام شنقاً حتى الموت .

وقال والي المدينة : لقد شهدتا ...

وقال قاضي المدينة : لقد شهدتا ...

وقال قائد الشرطة : لقد شهدتا ...

وقال الناس : لقد شهدتا ...

وفي ليلة تنفيذ الاعدام بالقاتل ، طلب مواجهة زوجه وأولاده وذوي قرباه .

وسألته زوجه : كيف أبحت بسرِّك المكنون ، بعد أن طال حرصك على كتمانه سنين !؟

وسأله أولاده ، وسأله أقرباؤه ، وسأله كلّ مَن صادفه من الناس ، هذا السؤال .

وكان جوابه الذي لا يتبدّل : «إنَ إرادة قاهرة شلَت إرادتي ، وأجبرتني على الكلام» .

ـ ٥ ـ

وفي فجر اليوم التالي ، اقتيد القاتل السّالب إلى ساحة الاعدام ، فنُفِّذ فيه الحكم شنقاً حتى الموت .

وهمهم حين وُضع الحبل حول عنقه قائلاً : «لم اتكلم بلساني ، بل بلساني الحمامتين اللتين كانتا في الطبق المستقر أمامي في دعوة العشاء» .

واجتمعت حشود الناس حول جثّة المصلوب وهي تهزج فرحة بإنقاذ المجتمع من مجرم شرير .

وحامت أسراب من الطيور فوق رأس المصلوب ، وكادت بعضها تُلامس الرأس ، كأنها تريد أن تأكل منه .

وفجأة انقلب هزيج الحشود الضخمة إلى تهليل وتكبير ، فقد استقرت حمامتان فوق رأس المصلوب ، لا تتحركان !

وهدرت الحشود بصوت واحد : لقد شهدتا ...

عجزت عدالة الأرض في اكتشاف سر القتيل السّليب ، فبقي القاتل السالب طليقاً سنين طويلة ، يحمل معه السرّ الدفين ، ولكنّ عدالة السماء ، كانت للقاتل السّالب بالمرصاد ، فكشفت سرّه وساقته إلى القضاء .

وأمهله القدر ساعة ، ولكنه لم يهمله إلى قيام الساعة .
وشهدت الحمامتان ، فساقته شهادتهما إلى مصيره المحتوم .

***		***
***

(١) الخرج : وعاء من شعر أو جلد ، ذو عِدْلَيْنِ ، يوضع على ظهر الدابة ، لوضع الأمتعة فيه . (ج) خِرَجَة وأخراج .

قـاتل أبيـه

نشأ يتيماً ، فقد مات أبوه وهو في الثانية عشرة من عمره ، فكفلته أمه التي كانت تعمل في بيوت الجيران ، لتأتي له بفضلات الطعام مساء يسد بها رمقه ، وبالثياب القديمة ليواري بها عورته ، وبالدراهم القليلة لتؤدي منها أُمّه أجرة غرفتها التي استأجرتها في دار قديمة أكل عليها الدهر وشرب .

وانهك أمّه العمل في بيوت الجيران ، فسقطت مريضة بالتدرن الرئويّ ، ولما لم تجد مَن يطعمها ويرعاها ، لجأت إلى المستشفى الحكومي ، حيث وجدت ما تأكله ومَن يرعاها من الممرضات ، ولكنها لم تتحمل وطأة المرض الذي هدّ بدنها ووطأة الحزن الممض على ولدها الصغير الذي بقي وحيداً في غرفتها ، فأصبحت الأم تعاني مرضين : مرض يحطِّم جسدها الضعيف ، ومرض يحطِّم نفسيتها المعذبة .

وذهبت الأم إلى جوار ربهَا ، وبقي الولد إنساناً بلا غد .

وترك الولد مدرسته ، لأنه اضطر على العمل في البناء عاملاً بسيطاً بأجر زهيد ، وبالتدريج تدّرب على البناء ، فأصبح بعد مضي

السنين من الذين يتقنون حرفة البناء ، فتحسّنت حالته الاقتصادية ، وأصبح يعيش عيشاً رضيّاً .

وقرّر في يوم من الأيام أن يكمل نصف دينه بالزواج ، فتقدّم إلى استاذه في حرفة البناء طالباً يد ابنته ، فوافق الأب ، وزفّت العروس إلى بعلها .

وتعاقبت السنون ، فأصبح صاحب دار مستأجرة وزوجة وأولاد ، معروفاً بإتقانه حرفته ، وأمانته في عمله ، وإخلاصه بأداء واجبه .

وتكاثر عليه الزبائن ، فكان يعمل في الاسبوع سبعة أيام ، لايكاد يرتاح يوماً من الأيام ، أو ساعة من الساعات ، وكان عليه أن يعمل يومياً لينفق أجره اليومي على عائلته التي أصبحت تزداد كلّ عامين تقريباً بمولود جديد .

وحرص على تعليم أولاده ، وكان يقول لزوجه وأولاده : تعبتُ في حياتي كثيراً ، واتمنى أن ترتاحوا في حياتي وبعد رحيلي بإذن الله .

ـ ٢ ـ

وتخرّج ولده البكر من الجامعة ، فأصبح موظفاً في الدولة ، وكان الأب قد قارب الخمسين من عمره ، وكان لايزال يعمل في حرفته ، وكانت شهرته قد ازدادت بقدر ازدياد ضعف بدنه وازدياد علله وأمراضه .

وتزوج ولده من زميلته الجامعية ، التي اشترطت عليه أن يغادر

بيت ابيه وأمه ، وأن يستأجر داراً مناسبة ويشتري سيارة جديدة ، وأن يجهِّز داره بالأثاث الفاخر والفراش الوثير والثلاجة والمبردة والغسّالة الكهربائية ...

وانصاع الولد لاوامر زوجه ، فهي جامعية من عائلة غنّية معروفة ، فلا بدّ من أنَّ يُنفِّذ أوامرها بدون مناقشة ولااعتراض .

وأصبح الولد ينوء بأعباء ديون ضخمة ، وعليه أن يدفع إجرة الدار وتكاليف الماء والكهرباء والهاتف وإجرة الفلاح ، فارتبكت أموره المالية ، فكان لابدّ من إجراء يخفّف عنه ما ينوء به من أعباء .

وكان والده يتمنّى أن يعينه في سدٍّ بعض اقساط ديونه المستحقه عليه ولكنه كان مسئولاً عن إدارة بيته وأولاده الذين لايزالون في المدارس والجامعات ، فعجز عن معاونة ولده بالمال ، ولكنه كان يحمل هموم ولده مرتين : مرة لشعوره الأبوي ، ومرة لعجزه عن المعاونة .

أما زوجته الجامعية ، فكان مرتَّبها لايكاد يسدّ نفقاتها الشخصيّة : ملابس وأدوات للتجميل وقبولات وزيارات وحفلات ترفيهية ، فكانت تستعين بزوجها في سد نفقاتها الكبيرة ، بحجة الظهور بمظهر لائق بزوجة جامعيّة مثقّفة .

ـ ٣ـ

وكان الولد قد استملك قطعة من الأرض بثمن رمزي من جمعية

بناء المساكن في الوزارة التي يعمل فيها موظفاً .

وتبرّع له والده ببناء دار له ، وتكفّل بدفع ثمن مواد البناء ونفقات العمل ، وبدأ بالبناء ، وارتفع البنيان شيئاً فشيئاً ، حتى فرغ من بناء الدار خلال عامين .

وكان شرط الوالد على ابنه ، أن يشاركه في سكنى الدار الجديدة ، خاصة وأن اولاده وبناته أكملوا دراستهم ، فتوظّف البنون وتزوجت البنات ، ولم يبق في دار الوالد المستأجر غيره وغير زوجه .

وفجأة توفيت أمّ الأولاد ، فأصبح والده وحيداً .

وانتقل الولد إلى داره الجديدة ، وانتقل معه والده الذي كان قد بلغ الستين من عمره ، وانتابته العلل والأسقام ، وأصبح لايقوى على مزوالة حرفته في البناء .

وبدأت مشاكل الولد مع ابيه العجوز العاطل عن العمل ، وأخذت تلك المشاكل تتفاقم يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت الحياة البيتية لاتطاق .

فقد كانت زوجة الولد تتبرّم بوجود أبيه معهما في الدار ، فتزعم تارة بأنه يتدخل في شؤونها الخاصة ، وتزعم تارة أنها لاتقوى على خدمته ، وتتهمه مرة بأنه يشيع الفوضى في الدار ، وينقل الامراض إلى أولادها ، وتتّهمه مرة أخرى بأنه لايعرف متطلبات الذوق السليم ولايلتزم بالعرف السائد في المجتمعات الراقية ......

وأخيراً انفجرت كالبركان الثائر وهي تقول لزوجها : إما أن يبقى والدك في الدار ، وإما أن أبقى أنا ، فاختر بقائي أو بقاءه .

- ٤ -

أنجز الوالد بناء دار ولده خلال سنتين ، وكان بإمكانه إنجازها خلال شهرين .

لقد كان يعمل في دور الزبائن يومياً ، فإذا انتهى موعد عمله ، استراح قليلاً ثم باشر عمله ثانية في عمل إضافي جديد هو ومَن يتطوّع للعمل الإضافي من العمال الآخرين الذين يعملون معه ، وكان هدفه من هذا العمل الدائب اليوميّ هو جمع المال لبناء دار ولده ، فقد تعهد أن يبني دار ولده على نفقته الخاصة .

فإذا جاء يوم الجمعة من كلّ أسبوع ، بكّر في الذهاب إلى عمله في بناء دار ولده ، ومعه عماله الذين يعملون معه في البناء .

وكان عمله يوم الجمعة يبدأ مبكراً وينتهي في الهزيع الأول من اللّيل ، وكان أكثر عماله يتنازلون عن أجورهم اليومية إكراماً له ، لأنه رئيسهم في العمل وأستاذهم في المهنة ووالدهم في التدريب على مهنتهم في البناء .

وقد كان الوالد يصاب بالزكام أو الصداع في الشتاء ، فلا يعفي نفسه من عمله اليومي ليستريح .

وكان الوالد خلال عمله في دار ولده يقتّر على أهله في الدار ،

لينفق على شراء مواد البناء من حصيلة أجوره الأسبوعية ، وكان يستفاد من فضلات مواد البناء التي تتبقى في أبنية زبائنه الذين يقدمونها له بدون عوض إكراماً له وتقديراً .

على كلٍّ حال ، استطاع الوالد أن يبني دار ولده بعرق جبينه وعلى حساب صحته وعافيته ومأكله وملبسه هو ومَن يعول .

ولكنه ما كاد يستقرّ في الدار الجديدة مريضاً ، حتى بدأت مشاكله مع زوجة ولده ، التي تصرّ على أن يصفو لها الجو وحدها في الدار ، لتأخذ حريتها كاملة وتَتصرّف في الدار وخارجها كما تشاء .

كان طعامه في دار ولده من فضلات الطعام ، وكان يتناول تلك الفضلات وحده على انفراد ، بعد أن يتناول ولده وزوجه وأولادهما الطعام .

ومنذ دخل الدار ، لم تغسل ثيابه في الدار ، بل تغسل في خارجها بيد امرأة عجوز تتكسّب من غسيل ثياب وألبسة الجيران .

أما فراشه ، فبقي على وضعه منذ دخل الدار ، لم يبدّل منه شيء ، ولم يُسَوّ أو يعدّل أبداً ، ولم ينظف ولم تنظف الغرفة التي يعيش فيها الوالد المريض .

وكان ولده لايراه إلاّ في وقت حمل فضلات الطعام إليه ، فتبقى فضلة تلك الفضلات إلى أن يعود إليه بفضلات جديدة صباحاً أو ظهراً أو مساءً . وإذا حدث أن اشتهى الوالد نوعاً من أنواع

الأطعمة ، أجابه ولده زاجراً : هذا هو الطعام المتيسر ، وهنا ليس مطعماً لتشتهي ماتريد !

وإذا اجتاحه المرض واشتدّت آلامه ، وسأل ولده أن يحمله إلى طبيب أو يستدعي طبيباً ، أجابه ناهراً : وماذا عسى أن يصنع لك الطبيب ! !

أما زوجة ولده ، فلا تدخل غرفته ولاتزوره مريضاً ، ولاتكلّمه أبداً ، وتمنع أطفالها من زيارته أو عيادته وحتى من دخول غرفته .

ـ ٥ ـ

ودخل الولد غرفة والده ليطرده من الدار ، إرضاءً لزوجه وحرصاً على تجميد وعيدها بمغادرة الدار .

كان ذلك في الساعة الرابعة عصراً في يوم مطير شديد البرد من أيام الشتاء .

وكان الوالد الشيخ المريض ، قد اشتدّ عليه المرض ، ينتابه السُعال القاسي ، ويكتم أنفاسه مرض الربو ، وهو مصاب بالسكّر وارتفاع الضغط والزكام .

ولم يكلِّم الولد أباه ، بل انحنى على فراشه القذر الممزّق ولفّ والده به ، ثم سحب الفراش المهلهل سحباً . فلما بكى والده وهو يسحب من غرفته إلى الشارع ، انهال عليه ولده ضرباً ورفسا .

واستقر الفراش وعليه الوالد الشيخ المريض في الشارع ، والبرد

شديد والمطر ينهمر .

وعاد الولد إلى الدار ، وأغلق بابه ، ولجأ إلى المدفأة كأنه أحرز انتصاراً في معركة حاسمة ، وزوجه تبتسم له مشجِّعة معجبة ببطولة زوجها ، فقدّمت له الشاي هدية على إيثاره لها على والده .

وتجمّع المارة حول الفراش المبلّل بالمطر الغزير ، فلما فتحوه وجدوا الرجل قد فارق الحياة .

وجاءت مفرزة من مفارز الشرطة ، فوجدوا الدم المتدفق من فم المتوفى ورأسه قد لطّخ الأسمال البالية التي تسمى مجازاً : الفراش .

وأُحيل الولد إلى المحاكم بتهمة قتل أبيه ، فحكم عليه بالسجن المؤبد وعادت الزوجة الجامعية إلى أهلها ومعها أولادها ، وبقي الدار خالياً من السكّان .

وعرضت الدار للإيجار دون جدوى .

ـ ٦ ـ

وقضى الولد في السجن خمس عشرة سنة ، تزوره زوجته مرة أو مرتين كلّ عام .

وصدر العفو عن المسجونين في مناسبة من المناسبات السياسية ، فأخبر مدير السجن الزوجة بأن زوجها المحكوم عليه بالسجن المؤبّد ، سيغادر السجن صباح اليوم التالي .

وقدمت زوجه برفقة ولدها الذي أصبح موظفاً إلى السجن ، وكان

ولدها يقود سيارته .

وجاءت الزوج مع أبنها الموظّف بسيارته ، فلمح الولد أباه يغادر باب السجن ، ولمح الوالد زوجه وابنه .

وأسرع الوالد للقاء زوجه وولده ، وأسرع الولد بسيارته نحو والده .

وبحركة لا إراديّة ، اصطدمت سيارة الولد بالوالد صدمة عنيفة ، فسقط الوالد أرضاً .

وارتبك الولد ، فضغط على مكبس الوقود بدلاً من الضغط على كابحة السيارة لإيقافها ، فهاجت السيارة وعبرت على جسد الوالد .

وترجّل الولد من سيارته ، فوجد والده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، والدم يتدفّق من فم والده ورأسه .

قتل والده فتدفّق الدم من فم الوالد ورأسه ، وقتله ولده فتدفّق الدم من فمه ورأسه

وأطلق سراحه من سجنه المؤبّد سلطان الأرض ، فأعاده إلى السجن المؤبّد في القبر سلطان السماء والأرض .

أما زوجه الجامعية فأصبحت أرملة إلى حين وهو سجين ، وأصبحت أرملة من بعده إلى الأبد .

وأما داره فخلت من سكانها انتظاراً لإطلاق سراحه ، وهي إلى

اليوم خالية لم يقدم أحد على سكناها من أهلها أو من المستأجرين .

لايُقدم على إشغالها غير أصحابها ، لأنهم يقولون : هي شؤم على من يسكنيها ، ومضى عليها عشرون سنة ، وهي خاوية على عروشها ، لا تباع ولا تؤجَر ! وقد أصبحت خراباً ، لا يدخلها أحد ولا يعمَرها إنسان .

لقد أصبحت تلك الدار مقراً للَبوم ، ينعق بها ، كأنه يذكِّر الجيران بأنين الوالد القتيل .

فويل لمن يقابل والديه بالعقوق .

المـلاح القـاتل

ـ ١ ـ

حُكم عليه بالأعدام شنقاً حتى الموت ، فنفِّذ فيه الحكم علناً في ساحة من أكبر ساحات بغداد ، فمضى إلى ربه كما مضى غيره من الناس .

ولكنَ القصة لا تبدأ هكذا .

كان يعمل جزاراً ، وكالعادة قصد المجزرة في الهزيع الأخير من الليل ، وذبح في تلك المجزرة أغنامه قبيل الفجر ، وأوكل أمر نقلها إلى حانوته التي يبيع فيها الأغنام المذبوحة إلى شريكه .

وعاد مع الفجر إلى داره ، التي تقع على جانب طريق ضيِّقة متعرِّجة مقفلة ، من تلك الطرق التي كانت شائعة في الاحياء القديمة من بغداد قبل أربعين عاماً .

وفي طريق عودتـه من المجـزرة إلى داره ، وعلى بعـد أمتـار معدودات منها ، في تلك الطريق الضيّقة المتعرجة المسدودة ، سمع صرخة مستغيث ، فهرول مسرعاً باتجاه الصوت المستغيث .

وعثر الرجل وهو يهرول بجثة قتيل يلفظ أنفاسه الأخيرة ، يسبح ببركة من دمه النازف ، فتلطّخت يداه وثيابه بالدماء ، وسقطت سكّينه من وسطه على صدر القتيل ، فتلوثت هي الأخرى بالدماء .

وأصيب بصدمه عنيفة ، ولكنه لم يكد يصحو من هول هذه الصدمه ، إلاّ وأُصيب بصدمة أخرى أشدّ هولاً من سابقتها ، فقد أحاطت به جماعة من الحرّاس الليليين المسلّحين بالهروات والبنادق والمسدّسات ، فأمروه بالنهوض ورفع يديه ، فنهض عن جثة القتيل ورفع يديه وهو في حالة يُرثى لها من الفزع والهلع ، فالتقط أحد الحراس الليليين سكين الجزّار الملوثة بالدماء والتي سقطت على جثة القتيل .

واجتمع عدد من الناس حول الحرّاس ، وتطلع قسم من الجيران ليعرفوا حقيقة الأمر ، واقتيد الجزار إلى مخفر من مخافر الشرطة القريبة .

وبدأ فوراً التحقيق في قضية مقتل الرجل ، وشهد الحراس اللّيليون بأنهم كبسوا الجزّار وهو على صدر القتيل ، وأنّ سكّينه التقطت من فوق القتيل ، ولم يجدوا غيره بالقرب من مصرع القتيل في ذلك الوقت المبكر من الفجر .

وأيد قسم من الشهود الذين تجمَّعوا أو تطلَّعوا ، شهادة الحرّاس الليليين ، فاقتنعت المحكمة بأنّ الجزّار هو القاتل ، فحكمت عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت .

ولم يسمع أحد لإنكاره بأنه ليس القاتل ، ولم يصدِّق أحد قصّته الحقيقية بانه عثر بالقتيل وهو في طريقه إلى داره فجراً ، وذهبت أقواله وتشبثاته أدراج الرياح . ولكنه بعد صدور الحكم عليه ، قال لقضاته الذين تولّوا محاكمته ، على مسمع من الحاضرين : «إنّ أقوالي صادقة ، وأقوال الشهود كاذبة ، ولكنني استحق الحكم عليّ بالإعدام ، لأنني قتلت طفلاً رضيعاً وأمه قبل سنوات ، ففتشوا عن القاتل الأصلي الذي ارتكب جريمة القتل وأفلتَ من العقاب ...

ونُفِّذ فيه حكم الإعدام شنقاً حتى الموت .

ـ ٢ ـ

وكان بالإمكان أن يمرّ إعدام الجزارّ كما مرّ إعدام غيره من المجرمين دون أن يترك أثراً في المجتمع ، أو يترك أثراً محدوداً في المجتمع يزول بمرور الأيام ، ولكنّ إعدام هذا الجزّار ترك أثره العميق في المجتمع بحيث لا يزال يتردد حديثه حتى اليوم .

وسرّ هذا الاثر يكمن في أنه كان بريئاً من دم القتيل الذي أُعدم بسببه ، ولكنه لم يكن مظلوماً في الحكم عليه بالإعدام ، لأنه كان مديناً للقدر بقتل طفل ووالدته ، عجز البشر في حينه عن إكتشاف قاتلهما ، ولكنّ الله كان له بالمرصاد .

نشأ في عائلة فقيرة جداً ، لاتكاد تحصل على قوتها اليومي إلاّ بشق الأنفس ، في حي من احياء (الرّصافة) من بغداد .

وفي السادسة عشرة من عمره ، عمل في قارب من قوارب العبور ملاّحاً في نهر (دجلة) بين جانبي بغداد : الرصافة والكرخ .

ومرّت عليه ست سنوات في عمله الدائب الذي قد يستمر في بعض الأحيان ليلاً ونهاراً ، لا يعرف للراحة طعماً إلاّ حين يأوي إلى فراشه لينام قليلاً ، وكان ما يجمعه يومياً لا يكاد يسد رمق عائلته الكبيرة المؤلفة من أبوين شيخين وخمسة أخوة وست أخوات ، وكان هو بكر والديه .

وذات صباح من أيام الصيف في بغداد ، كان على ضفة (دجلة) الأيمن حيث جانب (الكرخ) من بغداد ، جاءته فتاة مع أمها ، يبلغ عمر الفتاة ست عشرة سنة ، هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ، لا يشتكي قصر منها ولا طول ، نصف وجهها عينان كأنها عيون الغزلان .

ونقل الأم وابنتها إلى جانب (الرصافة) ، فتحرك قلبه للفتاة من أول نظرة ولأول مرة في حياته ، فلم يُبق له الفقر وإعالة أبويه وأشقائه وشقيقاته قلباً يخفق ، حتى ظن أنّ قلبه أصيب بالشلل الزَمِن ، فلا تحركه العواطف بقدر مايحرّكه الخبز .

والظاهر أنّ دقات قلبه حركت لا إرادياً دقّات قلب الفتاة ، فبادلته النظرات ، فلما وصلت ضفة دجلة اليسرى حيته بابتسامة مشرقة

جعلت قلبه ينهار لوعة وحباً . وبمرور الوقت عرف أنها تصاحب أمها من جانب (الكرخ) لزيارة خالتها في جانب (الرّصافة) صباح يوم الخميس من كل أسبوع ، فأخذ ينتظر قدومها وينقلها إلى الجانب الآخر ، وينتظر عودتها فيعيدها إلى (الكرخ) .

وكان الشاب ذا هامة وقامة ، مفتول العضلات ، حلو اللّفتات ، عذب الابتسامات ، يقطر نخوة وشهامة ، كالأسد في غابته والنمر في عرينه .

وفي كلّ مرة تمتطي الفتاة وأمها قاربه ذهاباً وإياباً ، يرفض تقاضي الأجور الزهيدة ، فتأبى والدة الفتاة إلاّ أن تدفع الأجر كاملاً ، فيسّر هذا التنازل والرفض التعارف بين الطرفين وتبادل الكلمات القصيرة ، كالتحية والسؤال عن الصحة والعافية .

وهمس مرة في أذن الفتاة ، منتهزاً فرصة مغادرة الأم القارب أولاً إلى اليابسة قائلاً : «أحب أن اتزوجك» ، فقالت : «اطرق باب والدي ، فتسمع الجواب» . ومضت الأم والفتاة إلى سبيلهما .

- ٣ -

وبقي الفتى يفكّر في أسلوب عرض زواجه بالفتاة على أبويه ، وفي طريقة إقناعهما بهذا العرض .

ومرت أسابيع عدّة وهو غارق في تفكيره ، يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ،وكان يُلاقي فتاته كل خميس رائحة غادية ، تلاحقه بنظرات العتاب ، وعتاب العينين أبلغ من عتاب الشفتين ، فكان . بغضّ

الطرف خجلاً تارة ، ويقابل نظراتها بالابتسام تارة أخرى .

وهمست في أذنه ذات صباح : «طرق باب والدي غيرك» ، ثم مضت متعثرة الخطوات ، خجلة متلعثمة ، كأنها اقترفت ذنباً عظيماً .

وعاد الفتى إلى أهله مساء ، فأخبر أمه بقصته وفتاته ، فوعدته أن تحمل له الجواب وشيكاً .

وكلمت أمه أباه بالدموع ، فليس في دارها كساء ولاغذاء ، ولولا حُبُّ الوطن لهجرته فيرانه ، إذ ليس فيه ماتأكله ، وليس لديهم درهم ولادينار ، وفي الدار غرفة واحدة يطلق عليها اسم الغرفة مجازاً ، لأنها لاتقي من مطر الشتاء ولا من شمس الصيف ، ويدخلها الريح من مواضع وشقوق شتى بدون استئذان.

كان قلب الأم والأب مع ولدهما،ولكن عقليهما كانا بعيدين عنه ، فقد كانت لدى الوالدين اسباب كثيرة تحول بين ولديهما والزواج ، لعلَّ من تلك الأسباب الفقر والفاقة وغياب المال ، والفلوس تأتي بالعروس ، وضيق المسكن ، والعروس لا بد لها من غرفة تخلوا فيها إلى زوجها ويخلو .

واختلت الأم بولدها ، تحدثه بالبكاء لاباللّسان ، ففهم الفتى منطق الدموع والعبرات ، ومضى إلى سبيله دون أن يبسط عذره أو يحتج .

وجاء يوم الخميس من جديد ، فعاتبته نظراتها عتاباً مرّاً ، فلما عادت من زيارة خالتها قبيل المغرب ، عاد بها إلى جانب (الكرخ) ،

ثم تعقبها خلسة إلى دار أهلها ، وكانت تلتفت إليه كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ومع التفاتتها ابتسامة مشجِّعة .

ووصلت إلى دار أبيها ، فدخلته وأوصدت خلفها الباب ، وحيَّته قبل أن تتوارى ، وتوقعت أن يزور أباها بصحبة أهله ، وطال انتظارها لزيارته دون أن يفعل ما توقّعته .

وأصيبت الفتاة بيأس قاتل ، كما أصيب الفتى .

يئست الفتاة من إقدام الفتى على خطبتها ، فقد طال انتظارها ، فماذا بَعْدُ تنتظر ؟ !

ويئس الفتى من الزواج بالفتاة التي أحبها من كل قلبه ، فقد وجد أن أهلها على درجة من الغنى والثراء ، وهو المعدم الفقير .

وطرق باب الفتاة طارق ، فاستجاب له أهلها وتزوجت .

وسلا قلب الفتاة بعد زواجها ونسي ، ولكنَّ قلب الفتى لم يَسْلُ ولم ينس . وانزاح قنوط الفتاة عن نفسها رويداً رويداً ، وبقي قنوط الفتى في نفسه وأصبح شيئاً بعد شيءٍ حقداً .

وعلم الفتى بزواج فتاته ، فلم تعد ترافق والدتها يوم الخميس من كل أسبوع لزيارة خالتها في جانب (الرصافة) .

ولم يعد الفتى ينتظر الفتاة وأمها يوم الخميس من كلِّ أسبوع ، ليحملهما من جانب النهر إلى الجانب الآخر في غدوهما ورواحهما .

ومضى عامان ، حسبهما الفتى قرنين ، فقد ظل حزيناً ساهماً يفكِّر

بفتاته التي لم يستطع الزواج بها لظروفه الاقتصادية القاسية .

وفي يوم من الأيام ، حمل في قاربه فتاة وطفلاً ، وكان الضباب كثيفاً ، والجو غائماً .

وشرع يحرّك مجدافيه ، وابتعد بقاربه عن جانب الرصافة ، حتى أصبح في وسط النهر .

وفجأة رأى فتاته تحمل طفلها الرضيع من زوجها الذي زفّت إليه ، قبل سنتين ، فأمعن النظر في وجهها طويلاً ، حتى تأكد من أنها فتاته التي هام بها .

وكانت في شغل شاغل عنه بطفلها ، فناداها وذكّرها .

ولم تكن ناسية ، فقالت له : «لستُ لكَ اليوم ، فأنا بذمة زوج ، وهذا طفلي»

ولكنه تمادى في غيّه ، وقد تقمّصه الشيطان ، فأصبح نسخة طبق الأصل منه ، وزاد عليه مايعتلج في نفس الإنسان الأمارة بالسوء .

وراودها عن نفسها فاستعصمت ، وهدّدها بإغراق طفلها في النهر فما استكانت ، ونفّذ وعيده فأغرق طفلها حتى ابتلعه اليّم فما هانت ، وهاجمها بخنجره فاستأسدت ، وطعنها بضع طعنات فما ضعفت ، وجرجرها ليضمها إلى صدره فقاومت ، وغلب عليها النزيف فما استسلمت .

ولفظت أنفاسها الأخيرة ، وهي تدافع عن شرفها وعرضها ،

فحمل الجاني جثتها وقذفها في الماء الجاري .

وانحدر إلى ركن قصي من ساحل دجلة ، وغسل قاربه من الدماء ، وتخلّص من آثار الجريمة بهدوء ورويّة .

وذهبت الجريمة ، وسُجِّل بأن المجرم مجهول الهوية .

ولكن المجرم لم يصبر على عمله ملاّحاً في قاربه ، فقد كان يخيل إليه كلّما مر في وسط النهر بالقرب من الموضع الذي ارتكب فيه جريمته ، بأن الطفل الذي أغرقه في اليم يبكي ويستغيث ، ويسمع الصوت الذي انطلق منه باكياً حين جذبه من بين أحضان أمه قبل أن يقذفه في اليم ، ويسمع صوت أمه تهدِّد وتتوعّد وتزمجر ، وكأنها وهي في جوار الله تهاجم قاربه هجوماً لا هوادة فيه ، فيعلو الموج لبكاء الطفل واستغاثته وتهديد أمه وتوعّدها

فإذا أقبل الليل أصبح من المستحيل على الملاّح المجرم أن يعبر النهر ، فإنّ شبحي الطفل وأمه يطاردانه في الظلام ، ومعهما أشباح لاتُعد ولاتُحصى .

وهجر الملاّح قاربه ، وأصبح جزّاراً .

- ٥ -

وطالت جلسة الليلة الأخيرة من حياة الملاح القاتل ، وهو يحدِّث أباه وأمه وأخواته فأخواته حديثه الأخير .

واقترب موعد تنفيذ حكم الاعدام بالمّلاح ، فانضّم إلى أهله جماعة

من الرسميين الذين جاءوا يشهدون تنفيذ الحكم فيه شنقاً حتى الموت .

وجاء من يذكِّر الأهل والموظفين بأنّ الوقت قد آن للتنفيذ .

وكان الجميع مأخوذين بما سمعوا ، يتمنّون أن تطول حياة الملاّح ولو دقائق معدوُدات .

وجاء مَنْ يضع فوق رأس ووجه المحكوم كيساً أسود ، ويقوده إلى المشنقة .

وصاح المجرم قبل أن تسحب اللوحة من تحت رجليه : «فتِّشوا عن قاتل صاحبكم ، فأنا أُشنق لقتلي الطفل الرضيع وأمه ، والحكم الذي صدر بحقي ليس من عدل البشر بل من عدل رب البّشر» .

وانتهى أمره ، ولكنّ قصته بقيت عبرة لمن يعتبر .

وَلِيمَة أصْفَهَانِيّة

ـ ١ ـ

كانا صديقين حميمين ، أحدهما تاجر من (طهران) ، والآخر تاجر من (أصفهان) ربطت بينهما المعاملات التجارية المادية فكان كل واحد منهما يشهد لصاحبه بالاستقامة في المعاملة المادية .

وفي يوم من الأيام ، اتفقا على أن يزورا معاً الديار المقدّسة والمسجد الحرام بمكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، ويؤديا فريضة الحج ، ويعودا معاً إلى بلادهما ـ لا يفترقان ـ ويتعاونان على البر والتقوى ، ويشد أحدهما عضد أخيه ، ويعينه على تحمل مشقات السفر الصعب الطويل .

ولم تكن في تلك الأيام سيارات وقطارات وطائرات ، تقطع المسافات الشاسعة بوقت قصير ، وتجعل السفر الشاق مريحاً ؛ بل كانت الخيل والجمال والحمير والبغال هي وسائط النقل للموسرين ، وكانت الأقدام هي الوسيلة الوحيدة لتنقل المعسرين .

وكان في كل بلد إسلامي رئيس قافلة معتمداً ، وكانت القوافل تتجمع من شتى البلدان الاسلامية ومعها حرس خاص من الجنود النظاميين أو من الجنود غير النظاميين ، لحماية القوافل المتوجهة إلى

الديار المقدسة والعائدة منها . وكانت الطريق يوم ذاك محفوفة بالأخطار ، مهددة بقطاع الطرق واللصوص . وقصد الصديقان رئيس القافلة المشهور بشجاعته وأمانته ، فضمن لهما حمايتهما حتى يعودا سالمين إلى بلادهما بعد أداء فريضة الحج ، وضمن لهما حملهما على دوابه ذهاباً وإياباً .

وكان يوم خروج قوافل الحجاج من البلدان الاسلامية يوماً مشهوداً : تتعطّل فيه المدارس والاعمال ، ويتجمّع الناس لوداع الحجاج ، وتشارك الحكومة في احتفالات التوديع ، وتدق الطبول وتصهل الخيول ، ويوزع المال والطعام على الفقراء والمحتاجين ، ويتعالى التكبير والتهليل .

وكما كان يوم خروج القوافل من البلدان الاسلامية يوماً مشهوداً ، كان يوم عودتها يوماً مشهوداً أيضاً ـ مع فارق بسيط هو أنّ التوديع تتخلله بعض العبرات والاستقبال تتخلله الزغاريد .

ـ ٢ ـ

ووفد الأصفهاني إلى طهران ، وانضم إلى قافلتها مع صاحبه الطهراني . وخرجت القافلة مودعة باحتفال مهيب ، واتجهت من مرحلة إلى أخرى ، سالكة الطريق البري : طهران ـ خانقين ـ بغداد ـ النجف ـ جميجمة ـ حائل ـ المدينة ـ جدة ـ مكة ـ عرفات .

وهذا الطريق البري الذي كان ولا يزال يسمى : طريق الست

زبيدة (زوجة هارون الرشيد) عامر بالخانات والبيوت وأحواض الماء ومراكز الشرطة ، وكان أقرب الطرق المؤدية إلى الديار المقدسة لحجاج العراق والخليج العربي والمشرق الإسلامي .

لم تخل رحلة الصديقين من منغصات ، فقد أصيب أحدهما بالمرض حتى أشرف على الموت ، وتعرّضت القافلة لهجمات اللصوص وقطاع الطريق ، وحدثت مشاكل يومية بين الحجاج والمسئولين عن القافلة ، فكان أحدهما يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وبذل كل واحد منهما أقصى جهده بكل إخلاص لمعاونة صاحبه .

والصداقة تقوى وتشتد في أيام الشدة والعسر أكثر مما تقوى وتشتد في أيام الرخاء واليسر ، وهكذا توطدت صداقتهما وأصبحت راسخة الأركان .

ورفقة الحجاج تؤدي إلى صداقة لا تنسى ، فكل مودة لله تصفو .

وكان أحدهما يقول لصاحبه : كيف أستطيع فراقك بعد العودة إلى الوطن ، فأسكن بلداً وتسكن بلداً آخر ؟!

وتعاهد الصديقان في البيت الحرام أن يتزاوروا باستمرار ، وألا ينسى أحدهما الآخر بعد العودة إلى الوطن .

وعادت قافلتهما من الديار المقدسة ، بعد أن صادف أفرادها الأهوال في الطريق ، وكان قد مضى على خروجها عام كامل .

ـ ٣ ـ

وسارع الأصفهاني بعد وصول قافلته إلى طهران بالسفر إلى

بلده ، فقد كان بشوق غامر إلى أهله وذويه .

وودعه صاحبه الطهراني ، وسار معه إلى مشارف طهران ، وذكّره بوعده الذي قطعه على نفسه في البيت العتيق : أن يزور صديقه في طهران بأسرع وقت وأقرب فرصة .

ووصل إلى مدينة أصفهان ، وأمضى مع أهله ثلاثة أشهر ، وكأنها ثلاث سنين ، فقد كان على أحر من الجمر شوقاً إلى صاحبه الطهراني . ورتب أمور متجره وقضى ما عليه من حقوق ، ثم يمّم شطر طهران .

وكانت الحياة حين ذاك سهلة بسيطة ، ولم تكن صعبة معقّدة ، فقد عقّدت المدنية الحديثة الحياة ، وضاعفت متطلباتها الضرورية ، وكانت أكثر الضروريات اليوم لا يعرفها الناس ولا يعتبرونها ضرورية ، وكان بإمكان الرجل أن يعمل أياماً ليعيش برفاه وسعة شهوراً ، لذلك عاد الأصفهاني إلى طهران ، بعد ثلاثة أشهر من وصوله أصفهان ، وكان في نيته أن يمكث في ضيافة صديقه الطهراني وقتا غير قليل .

ولمح الطهراني صديقه الأصفهاني مُقبلاً ، فوثب لاستقباله مهرولاً ، وأخذه بالأحضان مُقَبّلا .

وكان الطهراني في متجره يحاور أحد كبار التجار في صفقة كبيرة ، فاعتذر من ذلك التاجر قائلاً : نؤجل الصفقة إلى موعد آخر ، فقد شغلني عن الصفقات والبيع والشراء حضور صديق العمر .

وعمد إلى متجره فأغلق أبوابه ، وقاد صديقه إلى داره هاشاً باشاً ، مستبشراً فرحاً مكرراً عبارات الترحيب الحارة .

وفي الدار ، استضاف صديقه في غرفة نومه ، وصرف زوجه منها ، وجعل ذلك الصديق يرقد على سرير زوجه ، زيادة في الترحيب والاكرام .

وحين حلّ موعد الغداء ، كان الطهراني قد حشد أصناف الطعام الفاخرة ، بما لا يقل عن عشرين صنفاً ، وحشد نحو خمسين مدعواً من كرام الناس .

وكان يقدِّم صديقه الأصفهاني للمدعوين ، واصفاً إياه بأنه صديق العمر ، وأن زيارته أمل العمر .

وكما فعل في وجبة الغداء فعل في وجبة العشاء ، ولم يذهب الى متجره في ذلك اليوم ملازماً صديقه ملازمة الظل للانسان السائر بالشمس .

وبالغ في إكرام ضيفه مبالغة نادرة . يصب الماء على يديه ، ويقترح عليه تبديل ثيابه ، ودخول الحمام ، ويتمنى على صديقه أن يطلب خدمة من الخدمات ... الخ ...

ومضى اليوم الأول ، ومتجر الطهراني مغلق ، وأعماله معطّلة وبيته يعجّ بالضيوف وأصناف الطعام ، وزوجه غاضبة ، وأهله منهكون يتمنون على الله أن يرحل عنهم هذا الضيف الثقيل .

ولما آوى الصديقان إلى غرفة النوم سأل الطهراني صاحبه الاصفهاني : «لعلك رضيت عن وليمتي الغداء والعشاء» ؟

وقال الأصفهاني : «إن ولائمك ممتازة ولكنها ليست أصفهانية !» .

وظنّ الطهراني أن صاحبه لم يرض عن ولائمه ، فعزم في نفسه أمراً ليومه المقبل . حشد له في وليمة الغداء خمسين صنفاً من أصناف الطعام الفاخر ، ودعى نحو مئة شخصية سياسية وعلمية ، وكرر هذا الحشد الضخم من الطعام والناس في وليمة العشاء .

وبالغ في إكرام ضيفه مبالغة لا توصف .

ولما أوى الصديقان إلى غرفة النوم سأل الطهراني صاحبه الأصفهاني :

«لعلك رضيت عن ولائم اليوم» ..؟

فكرّر الأصفهاني كلمته السابقة : «إنَ ولائمك فاخرة ولكنها ليست أصفهانية» !!

وظنّ الطهراني أنّ صاحبه لم يرض عن ولائمه منتقصاً قدرها بقوله : «ليست أصفهانية» ، وكأنه لم يستطع أن يأتي بما يفعله الاصفهانيون في ولائمهم .

وعزم أن يرضي صاحبه في ولائمه التي سيولمها في اليوم الثالث من زيارة صديقه الحبيب .

وكان اليوم الثالث من أيام الضيافة يوماً نادراً مشهوداً من أيام طهران ، في إقامة الولائم والبذخ في أصناف الطعام وعدد المدعوين .

وحشد في الغداء والعشاء كل صنف من أصناف الطعام المعروفة في طهران .

ودعا لتناول الطعام مع ضيفه كل سياسي ومفكِّر ووجيه حتى بلغ عدد المدعوين ألف رجل أو يزيدون ، ولما أوى الصديقان إلى غرفة النوم ليلاً عاد الطهراني إلى سؤال صاحبه الأصفهاني : «كيف وجدت ولائمي اليوم ..؟»

وقال الأصفهاني كلمته المعهودة : «إنها فذّة حقا ، فاخرة حقاً ، ولكنها ليست اصفهانية !!» .

وفي صباح اليوم التالي ، أسرج الأصفهاني بغلته ، وودّع صديقه ، وسافر إلى أصفهان .

وتنفّس الطهراني الصعداء ، فقد أنفق على ولائمه مبالغ ضخمة من المال ، وعطّل متجره ، وفارق زوجه في الفراش .

وتنفّس الصعداء أهل الدار ، فقد كادوا يموتون من الاجهاد والاعياء .

وقال الطهراني في توديع الأصفهاني : «سأزورك وشيكاً في أصفهان ، لأرى ولائمك الاصفهانية» !!

ـ ٤ ـ

وبعد أيام معدودات سافر الطهراني إلى أصفهان وهو أشد ما يكون شوقاً لرؤية الوليمة الأصفهانية ... كيف تكون !!

كان الأصفهاني في متجره يبيع ويشتري حين وصل صديقه الطهراني ، وكان يحاور تاجراً كبيراً لعقد صفقة تجارية معه ، فقام مرحباً بصاحبه ثم استأنف محاورته مع التاجر الكبير .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر وهو موعد إقفال المتجر ، نهض

الأصفهاني وأغلق محله وقاد صديقه إلى داره .

وفي الدار أدخله الى غرفة الضيوف ، ولم تكن الفنادق شائعة حينذاك ، وكان في كل دار كبيرة غرفة معدة للضيوف ، وكل غرفة من تلك الغرف تحوي العديد من سرائر النوم والأغطية وعدة الفراش .

وفي تلك الغرفة قال لصديقه : «اختر لنفسك سريراً تنام عليه ، وسأعود اليك بعد دقائق لتناول طعام الغداء .

وعاد الأصفهاني ، وسأل أن يأتوهما بالغداء ، وكان الغداء بسيطاً هو المتيسر بالدار من الطعام .

وبعد تناول الطعام ، استأذن الاصفهاني صاحبه قائلاً له : «سأذهب إلى المتجر الساعة السادسة بعد الظهر كما أفعل كل يوم ، وسأبقى هناك حتى الساعة الثامنة ، فإن شئت رافقتني ، وإن شئت أتيت وحدك . وإن شئت ذهبت إلى المقهى ، وإن شئت تجولت في البلد ، وان شئت بقيت في الدار .. أنت حر» .

وفي الساعة الثامنة مساء عاد الأصفهاني إلى داره ، فطلب العشاء ، وكان بسيطاً اعتيادياً ، هو ما يقدم للأهل كل يوم .

وقدم الفطور للضيف في صباح اليوم التالي ، فتناوله الطهراني وحده في غرفة الضيوف ، وتناول الأصفهاني فطوره مع أهله .

وتكرر ذلك ثلاثة أيام : طعام الفطور والغداء والعشاء اعتيادي بسيط . والاصفهاني يذهب الى متجره صباحاً ومساء كالمعتاد ،

وليس في دار الاصفهاني أحد يعرف بوجود الضيف وهويته ، لأنّ الأصفهاني لديه في كل يوم ضيوف يتناولون الطعام الاعتيادي الذي يتناوله أهله في الدار سواء بسواء .

كان كل شيء بالنسبة للاصفهاني طبيعياً عفوياً غير متكلّف ، ولكن لم يكن كل شيء بالنسبة للطهراني طبيعياً ، فقد كان يعلّل نفسه كل يوم بوليمة أصفهانية (على نحو ما أمل) وحين لا يجد تلك الوليمة التي طال شوقه إليها وانتظاره لها يختلق لنفسه المعاذير فيقول : ربما كان أهله مرضى ، ربما ستكون الوليمة المنتظرة غداً ، ربما يتهيأ لها الأصفهاني ويعدّ لها العدة .. ربما .. ربما ...

ومرت بضعة أيام وطعام الفطور والغداء والعشاء اعتيادي جداً ، يقدم للضيوف كما يقدم لأهل الدار .

ونفد صبر الطهراني فقال لصديقة الاصفهاني : «متى موعد الوليمة الاصفهانية ؟ لقد بذلت كل جهدي في الولائم الطهرانية ولكنك على ما يبدو فضلّت عليها الولائم الأصفهانيّة ، وقد طال شوقي لرؤيتها وتذوقها ، فمتى أحظى بوليمتك المرتقبة» !!!

فضحك الأصفهاني حتى استلقى على قفاه ، وبعد أن سكت عنه الضحك قال : «ياصاحبي ! كل يوم في كل وجبة من وجبات الطعام ، تقدّم اليك وليمة اصفهانية !» .

لم أكن أقصد حين قلت لك عن ولائمك : إنها ليست أصفهانية .. أنّ ولائمك غير فخمة ولا فاخرة .

وإنما كنت أقصد ، أنها ولائم متكلّفة ، لأننا في أصفهان لا

نتكلف لضيفنا .

اني حين قدمت طهران ضيفاً عليك عزمت على أن أبقى في ضيافتك ثلاثة أشهر على الأقل ... ولكنني حين رأيت ولائمك المتكلفة ، قطعت زيارتي بعد ثلاثة أيام رحمة بك وشفقة على عيالك .

وأنت اليوم إذا بقيت في ضيافتي ثلاثة أشهر أو ثلاث سنين ، فلن تكلفني شيئاً ولن يشعر بوجودك أحد من أهلي بتعب ولا إملال !

إن أهلي سبع عشر نسمة بين ذكور وإناث ، ولن يزيد عليهم ضيف أو ضيفان أو ثلاثة ضيوف شيئاً في طعامهم وشرابهم .

وحين أقدم لك ما أقدمه لأهلي من طعام ، فقد رفعت أخوتك إلى منزلة الولد والوالد والوالدة والزوج .

«تلك هي الوليمة الاصفهانية» .

ـ ٥ ـ

إننا أمة الولائم ، نقضي في إعدادها وقتاً طويلاً ، وننفق عليها المبالغ الجسيمة ، ونتحمل من أجلها ما لا نطيق .

ونحن على النطاق الجماعي والفردي نسرف في الولائم إسرافاً لا مسوِّغ له على حساب المال الذي يذهب بددا وعلى حساب الوقت الذي يذهب سدى .

ما ضرنا لو جعلنا ولائمنا اصفهانية ، لنوفِّر على أنفسنا المال والجهد ، وعلى أهلنا المشقة والنصب ... وعلينا وعلى ضيوفنا الوقت الثمين .

ما ضرنا لو أنفقنا المال الذي يبدّد في الولائم ، لاسعاد الفقراء والمحتاجين ، والوقت الذي ينفق في إعدادها وشهودها فيما ينفع الناس .

لقد كان رسول الله ﷺ لا يتكلّف لضيفه .

وحسبك إكراماً للضيف ، أن تقدِّم له ما تقدِّم لأهلك .

إن الذين يسرفون في تقديم الطعام للمتخمين الذين ليسوا بحاجة اليه هم غير كرماء .

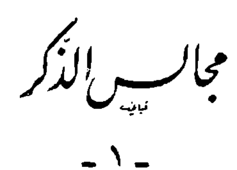
إن الكريم حقاً هو الذي يقدم الطعام للمحتاجين إليه والمحرومين منه فمتى نضع الأمور في نصابها الصحيح .

إن إطعام الأثرياء إسراف ، وإطعام الفقراء كرم ، والكرم محمود ، والاسراف مذموم .

ومن المؤلم حقاً ، أن الولائم الفاخرة من حظ الاغنياء ، أما الفقراء فليس لهم إلاّ الجوع .!

فهل يمكن أن نصف الذين يولمون الولائم الفاخرة للاغنياء والمتخمين بأنهم كرماء !

أم يجب أن نصفهم بصفات أخرى ، منها : الاسراف .. والتبذير والنفاق .. والرياء ..!!



ـ ١ ـ

كانا جارين ليس بين داريهما غير حائط قصير يسهل اجتيازه على الشاب والرجل ، ولكنهما كانا متناقضين في الطباع والخُلُق والسِّيرة ؛ أما الأول فكان يمثِّل النور بما فيه من صفاء وبهجة وخير ، وأما الثاني فكان يمثِّل الظلام بما فيه من عتمة وانقباض وشر .

وساق سلوك الأول صاحبه إلى حب الناس وتقديرهم له ورضا الله ، وساق سلوك الثاني صاحبه إلى الموت شنقاً وإلى كره الناس له وسخط الله عليه .

رحلا من هذه الدنيا كل بأجله الموعود ، ولكنّ سُكان (الموصل) لا يذكرون الأول إلاّ بالرّحمات والعبرات ، ولا يذكرون الثاني إلاّ باللّعنات والمسبّات .

وكان رحيل كل من الجارين عن هذه الدنيا حين رحلا عنها ، يوماً مشهوداً يذكره الموصليون حتى اليوم ، كأنّ رحيلهما تاريخ من التاريخ .

أما رحيل الأول ، فقد كان يوم حزن بالغ وألم شديد : شيَّعه المشيِّعون بالعبرات والزفرات ، واجتمع في جنازته القاصي والداني ، وأعلن الحداد غير الرسمي على وفاته ، ولا يزال ذكره الحسن يعطِّر المجالس .

أما رحيل الثاني ، فقد كان يوم فرح بالغ وانشراح عميم : حضر الناس جميعاً موعد شنقه ، ففاضت روحه على أصوات الزغاريد والتهاليل ، ولا يزال ذكره السيء على كل لسان .

ولم يقض وحده شنقاً حتى الموت ، بل أخذ زوجته معه أيضاً ، إذ شاركته مصيره المفجع المروِّع .

كان اسم الأول الحاج خطاب أحمد ، وكان اسم الثاني عبودا .

ـ ٢ ـ

تقلّب الحاج خطاب بين النعمة وشظف العيش ، عانى من اليسر والعسر ، ولكنه صبر على العسر وشكر على اليسر .

كان تاجراً ينقل الأغنام والأبقار من (الموصل) إلى (حلب) ، وقد تمتد مسيرته إلى الاسكندرونة والاسكندرية ، وحين يبيع أغنامه وأبقاره يشتري بثمنها أقمشة وصابوناً وينقل بضاعته من أرض الشام أو مصر إلى العراق .

وصادف مرّة في رحلته من (الموصل) إلى (حلب) أن أصيبت ماشيته بوباء من تلك الأمراض المعدية التي تصيب الماشية ، فعاد من رحلته لا يملك قوت يومه .

وصادف مرّة في طريق عودته من أرض الشام إلى العراق ، أن هاجمه قُطَّاع الطُرق ونهبوا أمواله وبضاعته ، فعاد أدراجه وهو لا يملك شروى نقير .

ولكن مروءة الناس حينذاك ، لم تكن كمروءتهم اليوم ، فقد حدث أن الحاج خطاب كان يطوى هو وأهله في بيته ، وهو في عزلته يتجرَّع الغصص ، ولكنه كان دائباً على شكر الله . وحدث أن طُرِقَ عليه بابه وهو في تلك الأيام السُّود ، فإذا برجل من أصدقائه يقول له : خذ !

وتلمّس الحاج خطاب ما أخذه ، فإذا هو صرّة كبيرة من اللّيرات الذهبية العثمانية ، فبادر إلى طرح الصرّة أرضاً ، ثم هرول إلى القادم الذي دفع إليه المال ليلاً ، ليعرف هويته ويشكر صنيعه ؛ فكان الحاج خطاب يخبّ ليلحق بالرجل ، وكان الرجل يخبّ حتى لا يعرف أحد هويته ، وأخيراً لحق الحاج بصاحبه فإذا هو رجل من عائلة آل الجومرد عليه رحمة الله .

وعاد الحاج خطاب إلى داره ، وحمل الصرة وأوى إلى غرفته ، وحين استقر به المقام ، فتح تلك الصرة ، فوجد فيها خمسة آلاف ليرة ذهبية عثمانية .

والذين كانوا يملكون خمس ليرات فقط يومذاك لا خمسة آلاف ، كانوا يعدُّون من الأغنياء .

ومضى الحاج خطاب إلى السوق بهذا المال يشتري الأغنام

والأبقار ، ورحل بها إلى سورية . فربح ربحاً وفيراً .

وعاد من سورية بالأقمشة والصابون ، فربح ربحاً وفيراً .

وعاهد الله أن يشكر نعمته بتوزيع الأموال على الفقراء والمحتاجين واليتامى ، فبلغ في ذلك شأواً بعيداً قارب به ما كان يبلغه السلف الصالح من المنفقين أموالهم في سبيل الله .

ـ ٣ ـ

وكان عبود يومها شاباً ، فتزوج بامرأة سوء ، شجّعته على السّرقة ، وحثّته على طلب المال الحرام .

سرق أول أمره من بيض دجاج الجيران ، ثم سرق من دجاجهم .

وتطوّرت سرقته من البيض والدجاج إلى الأثاث والمتاع ، ثم الى سرقة خزائن النقود والحليّ .

وكان يعتمد على نفسه في أول أمره ، ثم أصبح رئيساً لعصابة من اللصوص ، تقطع الطرق ، وتعتدي على الآمنين ، وتهاجم البيوت في الليل .

وفي يوم من الأيام ، خطّط عبود للسطو على دار جاره الحاج خطاب ، وكان الأمر ميسوراً بالنسبة له ولعصابته ، إذ لم يكن بين دار الحاج خطاب وداره غير حائط قصير ، يمكن أن يجتازه هو وعصابته بسهولة حين يريدون .

وكان الحاج خطاب قد عاد من سورية بتجارته الرابحة ، وكانت أخبار أرباحه الطائلة الكبيرة حديث الناس جميعاً ، فقال عبود

لرجاله : لا بد أن نبادر إلى أخذ أموال الحاج خطاب قبل أن يبدّدها على الفقراء .

ـ ٤ ـ

كان يوماً من أيام الشتاء القارص ، وكان القمر في المحاق ، فلما انتصف الليل ، اجتاز عبود وعصابته الحائط الذي بين داره ودار الحاج خطاب ، فحلوا في سطح المنزل ، وأخذوا يترقبون الفرصة السانحة للنزول من السطح إلى داخل الدار .

ونظر عبود من سطح الدار الى باحته ، فوجد حلقة للذكر ، تحفل بالذاكرين الله ، وهم يرددون أذكارهم بخشوع .

وانتظر عبود انصراف الذاكرين ، ولكنهم لم ينصرفوا حتى أذّن المؤذن لصلاة الفجر .

وعاد عبود ورجاله من حيث أتوا ، وأزمعوا أن يعيدوا الكرّة في اليوم التالي .

وعادوا مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة ، وهم يجدون كل ليلة من تلك الليالي السبع مجلس الذكر حافلاً ، وكان عدد الذاكرين يزداد ليلة بعد ليلة ، ويوماً بعد يوم .

وأخيراً قررت العصابة ألا تعود إلى دار الحاج خطاب ، لأن مجالس الذكر الحافلة كل ليلة تمنعهم من تحقيق مآربهم .

وبعد شهر حلّ موسم الربيع ، وجاء مع الربيع الخير والبركة .

وقدم رعاة أغنام الحاج خطاب بالسَّمن واللَّبن ، فوزّع شطراً منه إلى الجيران ، وكان لعبود من هذا الخير نصيب .

وجاء عبود شاكرا للحاج خطاب هديته ، وفي أثناء الحديث ، قال عبود : يا حاج خطاب ! أتعقدُ في بيتك كل ليلة مجلساً للذكر ؟

وقال الحاج خطاب : لم أعقد في بيتي مجلساً للذكر منذ سنين .

وقال عبود : ولكنني رأيت بعيني هذه المجالس تُعقد كل ليلة من ليالي الشتاء المنصرم !

وقال الحاج خطاب ! سبحان الله : هل رأيت تلك المجالس بعينك ؟!

وقال عبود : الآن حصحص الحق ... ثم حدّثه بمحاولته سرقة داره ، وما رآه بعينه .

وقال الحاج خطاب : الحمد لله .. إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا .

ومضى عبود على وجهه كمن أصابته لوثة يردد : أنا رأيت مجالس الذكر بعيني !! كيف !!!.

ـ ٥ ـ

واجتاحت البلاد العربية موجة الغلاء الفاحش في السنوات الأخيرة من سني الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

وأصبحت الحنطة مفقودة ، وأصبح سعر الوزنة في الموصل (ما يساوي ١٣ كيلو غراماً تقريباً) بثلاث ليرات ذهبية .

وجاع عبود ، وجاعت زوجته ، فقد بدّد المال الحرام الذي جمعه من السرقات بالخمر والميسر وما يتبع الميسر والخمر .

وشجعته زوجته على خطف الأطفال وذبحهم ، فخطف العديد منهم وذبحهم وأكل لحمهم .

وكُشف أمره بعد حين ، فحوكم ، وحُكم عليه وعلى زوجته بالشنق حتى الموت .

وأذاعت الحكومة القائمة حينذاك ، نص الحكم على عبود وزوجته ، وموعد تنفيذه ومكانه . وجاء الناس من كل فج عميق ، ليشهدوا موت المجرم السفاح ، وهم في فرح غامر ، وسرور عظيم .

وقيل لعبود قبل تنفيذ حكم الاعدام عليه : ما هي آخر رغباتك في الحياة ، لنحققها لك ؟.

قال : آخر رغباتي هي أن أُقَبِّلَ لسان زوجتي .

وأمام مشهد من الناس ، أخرجت زوجته لسانها ليقبِّله زوجها عبّود ، فأخذ اللسان بفمه وقضمه بأسنانه حتى قطعه بين صراخ الزوجة وصخب الجماهير .

وقال عبود : قطعت لسانها قبل موتي وموتها ، لأنه كان سبب نكبتي ! لقد حثتني على الجرائم الصغيرة . وشجعتني على الجرائم الكبيرة ، حتى أصبحت مجرماً خطيراً .

واذا كانت حياتي كلها شراً ، فإنّ قطع لسان زوجتي على مشهد من الناس فيه عبرة ، لعل فيها بعض الخير للناس .

وبعد لحظات كان عبود وزوجته في عداد الأموات ، وكانا يتأرجحان على حبال المشنقة ، عبرة لمن يعتبر .

في ضيافة النبي ﷺ

- ١ -

غادرت مكة المكرمة في الهزيع الأخير من الليل ، فوصلت مدينة (جدة) قبيل صلاة الصبح .

واسترحت قليلا في الفندق ، حتى سمعت صوت المؤذن يجلجل لصلاة الصبح ، وكنت في مستقرى جار المسجد ، فقصدته وصليت فيه ثم عدت الى الفندق .

وكنت قد أصبت بالزكام الشديد في مكة المكرمة ، سعالي متصل بمعدل عشر مرات في الدقيقة ، أقذف الرشح مع كل سعال ، وينهمر من أنفي كأنه المطر ، وكانت حرارتي تسعا وثلاثين درجة مئوية ، ولكنني كنت أشعر بالصحة والنشاط المتدفق ، لأنني على موعد وشيك بلقاء الحبيب .

وفكّرت بالسفر جوا من جدة الى المدينة ، ولكن المسافرين بالطائرات كثيرون ، ومواعيد اقلاع الطائرات عشوائية ، ولا طاقة لي على التسابق والزحام .

وكنت أحب أن أعيش في جو معركة بدر الكبرى ، وأرغب أن

أزور الشهداء الذين استشهدوا هناك دفاعا عن الاسلام لتكون كلمة الله هي العليا ، وأريد أن أتركع في مسجد العريش الرابض على ربوة من ربوات (بدر) ، وأريد أن أشرب من الماء الذي ارتوى به النبي ﷺ بالقرب من مسجد العريش ، وأتمنى أن أتنسم نسمات (بدر) وما أطيبها من نسمات .

وتوجهت من جدة الى المدينة المنورة غير شاعر بالزكام والسعال وارتفاع درجة الحرارة ومشقة السفر ، وقلت للسائق : «تتوقف في (بدر) ان شاء الله» ثم بدأت أتهيأ روحيا للقاء المصطفى الحبيب ، مصليا على النبي ﷺ ، لا أنفك أصلي وأسلم عليه : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما صليت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا ابرهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم ، في العالمين انك حميد مجيد .

وكنت وحيداً بالسيارة ، وكان السائق مغرماً بالسرعة الفائقة ، فتركته على رسله وتمنيت أن يضاعف من سرعته ، وكان مغرما بسماع الأغاني من المذياع ، فرجوته أن يدعني أخلو الى نفسي وأستمتع بالهدوء الروحي العجيب .

وتوقفت السيارة ببدر ، فعشت في جو غزوة الفرقان ، وزرت الشهداء ، وتركعت في مسجد العريش (مقر النبي ﷺ في غزوة

بدر) ، وارتويت من ماء بدر ، وتنسمت نسمات الجو العطر بالايمان ، ثم غادرت تلك المنطقة المباركة ، وقد التهبت شوقاً الى لقاء المصطفى الحبيب .

ـ ٢ ـ

وسارت السيارة تلتهم الأرض وتطوى المسافات ، وعدت أردد نشيد النور والخير والصلوات ، وكان شوقي يزداد ويتضاعف ، وحسبت أن المسافة امتدت كثيرا ، وأن الوقت طال ، حتى بدت مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

وما كدت أصل المدينة وأتخلص من متاعي في الفندق ، حتى فتحت حقيبة ثيابي ، وأخذت منها ملابسي الجديدة التي أعددتها سلفا للزيارة ، وأخذت حماما خفيفا وارتديت تلك الملابس ، وتطيبت على عجل ، ثم يممت شطر الحرم الشريف .

كان الوقت قبيل صلاة العصر ، وكان الناس مزدحمين في الحرم النبوي الشريف ، فصليت ركعتي تحية المسجد ، وكان علي أن أبادر بالزيارة للسلام على النبي ﷺ وعلى صاحبيه : أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما ، ولكنني لم أفعل !

وتذكرت قصة الأمير الذي شيد المسجد النبوي والقبة الخضراء ، ورصد للبناء موارد مصر سبع سنوات ، فلما أنجز التشييد : قدم ذلك الأمير في مركب فخم من القاهرة الى المدينة المنورة وقدشدّ الرحال ،

وحمل الهدايا والصدقات للمجاورين . وحين وصل ركبه الى ضواحي المدينة المنورة ، ترجل وحسر رأسه وخلع نعليه ، ثم سار وهو ينتحب حتى باب عمر رضي الله عنه ـ وهو أحد أبواب الحرم ـ وهناك وقف وهو يقول : يارسول الله ! هذا حدي لا أتجاوزه !

وصلى وذكر الله كثيراً ، وعاد أدراجه متهيبا دخول المسجد والسلام على رسول الله وتسليمه من قريب .

لقد بقيت ساهما في مكاني ، لا أكاد أحس بأحد ممن حولي وكنت أشعر بأنني محتاج الى عون يأتيني من طي الغيب يساعدني في الزيارة ، وفجأة جلس الى جانبي أحد معارفي وسألني : هل سلمت على النبي ﷺ وصاحبيه عليهما رضوان الله ؟ فقلت : سأسلم عليهم الآن ، فتعال معي !!

وتهلل وجهه واستبشر ، وحمد الله وكبَّر ، وصلى على النبي وكرر ، ثم نهض ويده بيدي مبتعدا عن الزحام ، لا يتخطى رقاب الناس ، يهش لمن يعرف ومن لا يعرف ويسلم على الرائحين والغادين ، ويوزع ما بجيبه من نقود على الفقراء والمحتاجين ، يمشي الهوينا بوقار ، متدثرا بالتواضع وهو أجمل دثار ، يتلو أوراده ويردد أذكاره ، ويتلو : (ان الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

ومضى وأنا معه مخترقا الروضة الشريفة المطهرة ، ماراً بمنبر النبي

ﷺ ومحرابه ، ثم استدار الى الشمال ، فاقترب من عرين النور والفضيلة ؛ ومقر الطهر والعفاف ، ومأوى الرجولة والاباء .

وتذكرت وأنا قريب من حجرة النبي ﷺ قول الشاعر :

ياخير من دفنت في القاع أعظمه

فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفس الفداء لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

أنت النبي الذي ترجى شفاعته

عند الصراط اذا ما زلَّت القدم

واستقر بنا المقام أمام الجدث الطاهر ، وكان محفوفا بالزائرين الخاشعين التائبين وعيونهم تفيض بالدمع مما يرونه ويشعرون به من جلال وجمال .

ـ ٣ ـ

انني (أحاول) أن أصف شعوري واحساسي في حضرة النبي ﷺ ، بقدر ما يسعفني القلم وتسعفني الذاكرة ، ولست أشك في أنني أحمل نفسي فوق ما تطيق ، لأن القلم والذاكرة (مادة) فانية ، وجلال النبي ﷺ وجماله وهو في رحاب الله (روح) باقية ، ومتى ثبتت المادة في مواجهة الروح ؛ ومتى ثبت الفناء للبقاء ؟!

في طريقي من الروضة المطهرة الى حجرة النبي ﷺ كان قلبي يدق بشدة . وبقدر ماكانت خطواتي الى الضريح الطاهر بطيئة ، كانت دقات قلبي الشديدة سريعة ، وكانت رجلاي ترتجفان ، وكانت يداي ترتعشان ، ولم أكن خائفاً ، ولكنني كنت متهيباً ، وكان عقلي متفتحاً للقاء المصطفى الحبيب ؛ ولكنه كان في غيبوبة كاملة عما حوله من أحياء وأشياء .

وشعرت بتضاؤل أصحاب السلطان وغير أصحاب السلطان أمام الحجرة الطاهرة ، ولمست أنهم جميعاً يكتشفون حقيقة نفوسهم فيتطامنون ويتواضعون لوضع تلك النفوس في مكانها السليم .

وتذكرت ما نقله رجل للامام مالك رضى الله عنه ، وقد راى تواضعه الجم واكتفاءه بالقليل من متاع الدنيا الفاني . وعدم مبالغة الناس في تبجيله كما يفعلون مع المجتهدين في الدين بمصر وأرض الشام والعراق وفارس وسائر الأقطار الاسلامية الأخرى .

قال الرجل للأمام مالك رضي الله عنه : «مكانة فلان في مصر كذا ، وكذا ، وهو أقل منك علما ومنزلة» .

فقال الامام مالك رضي الله عنه : «هنا النبي ﷺ ، وهناك من تعرف من الرجال» .

ان قمم الأرض العالية مهما تبلغ علوا وارتفاعا ، هي ليست عالية بالنسبة للقمة التي ارتفعت الى مقام قاب قوسين أو أدنى .

ووقفت أمام الحجرة الطاهرة ؛ وكان بيدي كتاب للأدعية ؛ فحاولت أن أقلب صفحاته لافتش عن الدعاء المأثور ، ولكن ما ليدي ترتعشان ، وما لركبتي تصطكان ، وما لعيني لا تبصران !!!؟

وقلت لصاحبي : «اقرأ الدعاء ؛ وسأردده معك» ، فقال : «ولماذا لا تقرأ أنت ؟» .

يا عجبا ...

لقد رأيت قبل اليوم ـ ولا أقول زرت ـ كثيرا من الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء ، والقادة والزعماء وكثيراً من ذوي الجاه والسلطان ، في نطاق البلاد العربية والدول الاسلامية وغير الاسلامية أيضا ، فكان شعوري عند رؤيتهم متفاوتا بين الاحترام والسخرية والرثاء .

احتراما للذين يعملون من أجل المصلحة العامة حقاً بكفاية واخلاص ؛ منكرين أنفسهم ناسين مصالحهم الشخصية .. وما أقلهم ..

وسخرية من الذين لا يعرفون واقعهم وأقدار أنفسهم ، فيتخيلون لأنفسهم عظمة لا وجود لها ، وانجازات لا حقيقة لها ، ويصدقون من حولهم من الامعات والتافهين والوصوليين والهتافين وأشباه الرجال في ادعاءاتهم الباطلة عبقرية ونبوغا .

ورثاء للذين يشغلون مناصب أكبر من قابلياتهم ؛ فهم أقزام يطمعون أن يصبحوا عمالقة ، فأرشدتهم حاشية السوء بأن السبيل

الى ذلك هو أن يحطموا العمالقة ليخلو لهم الجو ، فلا استطاعوا أن يحطموا العمالقة ولا استطاعوا أن يصبحوا عمالقة ، وبقوا أقزاماً لا يستحقون غير الرثاء .

ولكنني لم أشعر مطلقا بأي نوع من أنواع الاضطراب عند رؤيتهم جميعا ، ولم أخشى منهم أحدا ؛ فليس لدي ما أخافهم عليه ؛ وليس لديهم ما أطمع فيه ، وما عند الناس لا يبقى وما عند الله خير وأبقى . ولو أن الانسان أخرج كلمة واحدة من نفسه هي كلمة (الطمع) بما فيها من معان ، لانكشف عنه الغطاء ، ولنظر الى ملكوت السموات والأرض .

أما في رحاب النبي ﷺ ، فالأمر مختلف جدا .

وقفت أمام النافذة الدائرية للحجرة النبوية الطاهرة : وكنت أهتز بشدة كالمصعوق بسلك كهربائي ؛ جسدي كله يرتعش ، وعيناي نصف مسبلتين كأنني بين النوم واليقظة ، وعقلي واعٍ أشد الوعي يستشعر حنان المصطفى الحبيب ولا يشعر بما حوله ومن حوله ، وقلبي متفتح أشد التفتح يتلمس الهدى والنور وينغمس بالسعادة والحبور ؛ وكأن الزمن قد توقف بالنسبة لي ، فليس بيني وبينه صلة وليس له مع الشبح الباقي مني حساب .

ثم وجدت لساني ينطلق بهذه التحية :

«السلام عليك يا سيدي يا رسول الله ، السلام عليك يا مولاي

«السلام عليك يا سيدي يا رسول الله

«السلام عليك يا سيد القادات ويا قائد السادات» .

«السلام عليك يا بطل الأبطال ويا رجل الرجال !» .

«السلام عليك يا امام المجاهدين الصادقين ويا قدوة الصابرين المحتسبين !» .

«السلام عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين ويا قائد الغر المحجلين وسيد الصحابة الميامين !» .

«أشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ؛ وجاهدت في الله حق جهاده ، فجزاك الله عن المسلمين خير الجزاء» .

يا لله ...! هنا العظمة الحقة ، هنا الجلال والجمال ، هنا الهدى والنور .

إن كل عظمة غيرها سراب ؛ وكل جلال غيره غثاء ، وكل جمال عداه هراء ، وكل هدى الاه ضلال ، وكل نور بعده ظلام .

وسرت خطوة الى أمام ، فسلمت على صاحبه في الغار ؛ ورفيقه في الجنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وكان شعوري أمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، شعور الوالد الذي يحنو على ولده ويداعب شعر رأسه ويضمه الى صدره رقة وحنانا ، وكنت أنا الولد وكان هو الوالد .

وكان قوله تعالى يرن في أذني : (اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ، ان الله معنا) .

وسرت خطوة أخرى الى أمام ، فسلَّمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بطل الفتح الاسلامي العظيم .

وكان شعوري أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، شعور الجندي الصغير يقف أمام أعظم قائد في علمه وتجربته ، ودينه وعقيدته ، وضبطه وسيطرته ، وكأن عمر القائد يصدر الي أوامره الصريحة الجازمة بشدة وصرامة بأن أكون أبدا جندياً في خدمة المسلمين ، في الوطن الاسلامي ، من المحيط الى المحيط .

ـ ٤ ـ

وتسمَّرت قدماي بجانب حجرة الهدى والنور ، لا أدري كم طالت وقفتي وامتد مكثي ، ولكنني شعرت بيد صاحبي تسحبني سحباً .

وجلست فوق دكة أهل الصفة ، خلف صف من خدم رسول الله ﷺ ، وهناك عاد اليَّ احساسي بالحياة ، وكأنني كنت في اغفاءة حلوة يتخللها حلم لذيذ .

ولكنني حين آويت الى هذه الدكة ، شعرت أن في فمي حلاوة : وفي قلبي نوراً ، وفي عقلي هدى ، وأن أنفي يجتاحه طيب فواح له أريج لم أعهده من قبل ، وله عبير لم أشم له مثيلاً .

وكانت روحانية رسول الله ﷺ في حرمه الشريف ، تغمر المصلين فيه بنشوة أزلية ، وكان الحاضرون بين راكع وساجد وقارىء للقرآن الكريم وذاكر لله ومصل على نبيه وحبيبه وصفيه رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبين ساهم تتصل روحه بأرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وكنت في مكاني

على دكة أهل الصفة ـ ساهماً أهتف من صميم قلبي «يا للعظمة !
كيف وقعت المعجزة ، فأصبح رعاة الابل والشاة ؛ وفقراء أهل الصفة ومعدموها ، قادة الفتح الاسلامي العظيم ، وقادة الفكر الاسلامي المنير ، في بلاد المسلمين الممتدة من المحيط الى المحيط .. يا للعظمة ..» .

وكنت حاضراً كالغائب ، يقظاً كالنائم ... تتصل روحي بالملأ الأعلى ، ويضيء في كياني نور السموات والأرض .

لقد كنت أشعر شعوراً حقيقياً أنني في الجنة مصداقاً لقول النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم : «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» ، وما شعرت أبداً في أي مكان على الأرض ، بأنني في السماء ، الا في الحرم النبوي الشريف .

وكنت في المدينة المنورة في أفخم فندق فيها ، يؤمِّن لقاطنيه أكبر قسط من الراحة والهدوء ، ويقدم لهم أفخر أنواع الأطعمة وأشهاها .. ولكن نومي أصبح قليلاً ، ولا أرتاح إلا في الحرم الشريف ، أما طعامي فكان أقل من القليل ؛ ولا أرتاد المطعم الا نادراً .

وكان معارفي قد أوصوا بي صاحب الفندق خيراً ، وكان يحرص على راحتي ورضائي ، يترصدني في غرفتي فلا يراني ، ويراقب زيارتي للمطعم فلا يلقاني ، ويستحث أعوانه على اخباره بعودتي فلا يصادفني ، فقيل له يوماً : انه مرابط في الحرم الشريف .

وجاءني يسعى متسائلاً : «لماذا هجرت الفندق ، وأين تتناول الطعام» .

وابتسمت قائلاً له : «أقضي وقتي كله في الجنة هنا ، أما طعامي فأنا في ضيافة أكرم الخلق عليه الصلاة والسلام» .

وعدت الى بغداد ، فاكتشفت أنني مريض ، وقد تطور الزكام الشديد وما يتبعه من مضاعفات ، وأدى اهمالي لمعالجته الى كثير من المشاكل .

وعلم الله أنني لم أكن مهملاً ، ولكنني لم أكن أشعر بالمرض ، وكنت مشغولاً عنه بما حولي من نور وكنت سعيداً الى أبعد الحدود ، فقد عافاني الله ومضى المرض ؛ وبقي في عقلي وقلبي سعادة وانشراح ونور لن تزول .

لقد طوفت بأقطار العالم شرقاً وغرباً ؛ ولكنني نسيت تلك الأقطار فلا أتذكرها ولا أذكرها الا نادراً .

أما زيارة المدينة المنورة وجواري للنبي ﷺ ، فأتذكرها بكل تفاصيلها صباح مساء ، وأذكرها في كل وقت بكل مكان .

وكنت أعلم أن النبي ﷺ على خلق عظيم ، أثر في أصحابه بسلوكه الفذ وهو حي يرزق .

ولكنني وجدت أنه يؤثر في أهل المدينة المنورة ومن يشدون اليها الرحال من أمصار الأرض بخلقه العظيم وهو بجوار الله .

ياأغنياء المسلمين و يا أصحاب الجاه والسلطان ! ان الثراء والجاه والسلطان لا تسعد الناس وقد تشقيهم ، فاقصدوا مدينة الرسـول عليه أفضل الصلاة والسلام ، لتجدوا السعادة بالهدى والاطمئنان بالنور والانشراح بالخلق القويم .

هنا الدنيا والآخرة ، هنا الأرض والسماء ، أفلا تذكرون ؟!

المحتويات

